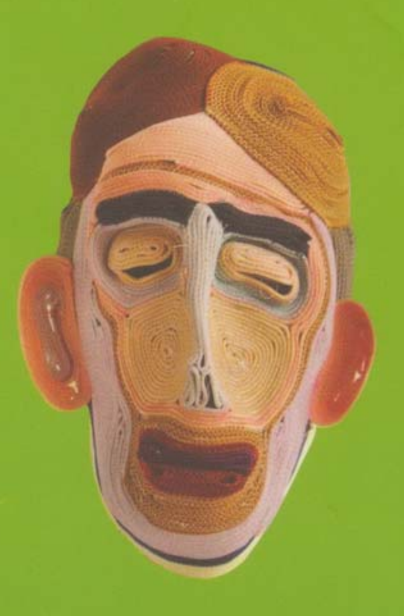
رواية

وحيد الطويلة

حذاء فيلليني





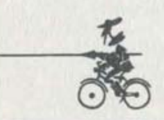


المتوسط

وحيد الطويلة

حذاء فلليني





المتوسط

حذاء تستتو

المؤلف: وحيد الطويلة/ عنوان الكتاب: حذاء فيلليني
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
صورة الغلاف: Studio Bertjan Pot / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-15-1



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

«اسحب ذيلاً قصيراً، فقد تجد في نهايته فيلاً».

فيلليني

إهداء

إلى الذين صرخوا ولم يسمعهم أحد.

إلى الذين لم يستطيعوا أن يصرخوا.

وحيد

مشهد ما كان فيلليني ليحبه

هذا ما حدث بالضبط.

نظرنا جميعاً دفعة واحدة إلى اليسار.

التوت رقابنا بحدَّة، بحركة واحدة، وبقيت على هذا الوضع.

التفتنا بقوة كأننا جنود جدد في معسكر تطوِّقه أسلاك شائكة وسط الصحراء.

غموض يلف المكان ،يطبع بصمَته على الوجوه والنفوس، ورهبة تدور تحت السقف تطنُّ فوقنا كنحلة خرقاء.

جالسين في انتظار القدر، لا صوت واضحاً، بالكاد همهمات واهنة، وسلام بتحريك الأيدي والشفاه فقط.

كأننا أجهزة آلية أو دمى يحركها واحد من الخارج بضغطة واحدة.

كأنه يلعب بنا، بل يلعب بنا فعلاً.

وصل الهر، عضو الحزب الحاكم، يمكن لك أن تستعير عين الشيطان، تحاول أن تختلس نظرة لكنك لن تراه، هو بين رهطه حراساً وخدماً ومعاونين، لن تراه لكنك ستحس به، ظله الثقيل يخنق المكان، رائحته الثقيلة أيضاً تتمدد في الهواء، لأصحاب السلطة رائحة لا تخطئها القلوب الواجفة.

انتظر قليلاً، عفواً انتظري قليلاً، كان يجب أن أوجه النداء إليكِ أولاً، فأنتِ الأولى بالتقديم كما تقول قواعد اللياقة، أنتِ الأولى كما تقول

قواعد العشق، وأنا رجل يمكن أن تصفينه دائماً بأنه عاشق قديم، القدم هنا لا يعني أنني قضيت وطري من الدنيا أو تداعت أسنان الغرام عندي كما قد يفهم البعض، إنما تعني أنني أوغلت وما زلت، تفاصيله تسكن ملامحي وأصابعي تنطق بالوعود.

النساء هنَّ من سيسمعنني ولو بأفئدة مكسورة، أما الرجال فقلوبهم مهشَّمة وما تبقى منها تحول إلى حجر.

انتظري قليلاً، يمكن للغافل أن يعرفه من وقع حذائه، دقات كعبيه واضحة عالية ترجف قلبك، تخرقه قبل أذنيك، يمكن مع طول وجودك في محيط هؤلاء أن تعرفيهم منها، من هذا الصوت المدبَّب وهم في أول الممر أو آخره، كعوب عالية تليق بهالتهم الرمادية، اللون الرمادي أسوأ الألوان، ملازم لأصحاب الغموض والسلطة - وهو يعرف - هو بالتأكيد يعرف.

صمتٌ شديد إلا من نغم متقطع، رتيب لكنه ظافر كأنه كسب معركة تحرير الأرض، حين أوشكت الموسيقى الكئيبة على الخفوت كان ذلك يعني أنه جلس، وأن ما تسمعينه من كعوب أخرى لهي كعوب الذين يلهثون حول رغباته، ويعني ذلك أيضاً أن تعود رقابنا من التوائها إلى موضعها القديم في الجسد.

كنا في نهاية مؤتمر لشحذ الوعي القومي بين الأمم التي ارتخى وعيها القومي، يحضره رفاق ورفيقات من مشارب الأرض ليكون الشحذ أممياً، فنحن أمة سامية ذات حضارة خالدة، وعلى الجميع في نهاية مؤتمرات الشحذ هذه أن يحتفل بما يليق بنا، بما أنجزناه وبما حطمناه، ونحن للأمانة كنا على مستوى المسؤولية، لم نقصر، وصوت مندفع من خلفي: وضعنا توصيات كالصواريخ، اتخذنا قرارات كالقنابل، انتصرنا على الأعداء في قلب المؤتمر وسنسحق المؤامرة أينما كانت، ولم ولن نبخل بشيء، كادت حناجرنا تطير من رقابنا في الهواء، وطارت الحروف والكلمات، من قوة النضال ومن سخونة الكلام.

نحن الآن على سطح الفندق، السطوح تليق باحتفالنا لنكون قريبين من السماء، ألا يكفيها أنها تستمد جمالها وجلالها من حكمة قائدنا، وجمله الخالدة ترتفع إلى عنانها أمام أعيننا، وواحدة تقول: «يا الله حالك حالك، القائد هيحل محلك» وأخرى ترد عليها: «يا الله حالك حالك، القائد يقعد محلك»، وليطير ابتهاجنا وفرحنا وربما تصريحاتنا إلى الأمم المجاورة، والأهم هو عزمنا على تنظيف الكون من الخونة والشرذمة الحقيرة.

بالمناسبة، الشرذمة تعبير لطيف صكّته أجهزة حمايتنا لحمايتنا من الآخرين وبالأحرى من أنفسنا.

صحيح أن العقيد القذافي وجد من يخترع له تعبير الزنادقة، لكنه تعبير قديم يليق بالأفاكين في العصور الغابرة من تاريخنا المجيد، أما الشرذمة فجديد تماماً يليق بالخونة منا ويفهمه الجميع من الأمي إلى المثقف، وإذا ما تم استخدامه في الصحف ونشرات الأخبار فإنه يؤتي أكله في الحال، لدرجة أن البعض يكسر شاشة التليفزيون من قوة ارتطام الأحذية بها حين يظهر المذيع بلهجته الفخيمة وقرار صوته الموغل في الإيحاء به، ليدغدغ غدد النضال المتوفرة بكثرة عندنا.

أخيراً وصل بجرمه الذي سمعنا به، خلسة لمحته وهم يتقافزون حوله، عريض ثقيل كخرتيت برأس أحمر، بحاجبين نافرين تتخللهما شعيرات طويلة خشنة، ونظرة ثقيلة تخشاها وتكرهها القلوب.

على طاولته يتمدد، لا أحد معه سوى اثنين من ندمائه، يجلسان متقابلين على حافة طاولة مكتظة بالورد، وهو يكاد يفيض حتى يعبرهما ويصل إلينا، والنُّدل من البنات حوله كحور العين، على طاولته تتراقص الأطباق، وعلى طاولاتنا تنام الأطباق، على طاولته الشراب وأقداحه، وتحت طاولاتنا حقائبنا المقدسة المكتظة بالتوصيات والمملوءة أيضاً بالشراب، خبأناه في انتظار إشارة البدء ونحن نتحرَّق، الزجاجات تحت الطاولة تكاد تبكي من الاختناق، عيوننا شاخصة لذراعه عله يتحرك، يفك أسرنا، يشير

إلينا وتبدأ المباراة، نريد أن نشرب لننساه، لننسى وجلنا منه، من وقع حذائه، من صوته المخيف المدبب، ولتمر الليلة إلى ما تريد.

صمت مفاجئ يهبط من آن إلى آخر.

الهواء البارد لم يكن له أن يمسح رائحة الريبة والقلق.

والانتظار طال.

بعضنا ينقنق في المقبلات كي يطرد الخوف، والآخر ترك طبقه الرئيسي أمامه كما هو حتى لا تنتفخ معدته وتنام رأسه.

خائفين وجلين نخشى أن تتحرك أصابعنا في أحذيتنا، كلامنا يمر بالكاد تحت الطاولات، همهمةً، خفيضاً، للأمانة كانت بعض الحقائب منتصبة أمامنا على الطاولات وضعها أصحابها خالية من الشراب، مزدحمة بالتوصيات كبرهان أكيد على الالتزام بمحاربة الشراذم والأرانب وعدم الاهتمام بتوافه الأمور.

قال أحدهم بنبرة مترددة كهمس اللصوص:

- اذهب إليه... اذهب إليه.

.. أنا؟

- نعم أنت، اسمك مطاع ولن يؤخر لك طلباً.

.. اسمي مطاعَ، صحيح، لكن ليس هنا يا مولانا.

- يا جبان.

سمعتها، خرقت أذني، لكنني تقدمتُ.

أنا لا أعرف من الأساس سبب دعوتي ولا من دعاني، ولماذا؟ هل تشابه اسمي مع اسم آخر؟ تلقيت الدعوة ولم أسأل، من في مدينتا يسأل؟ في الأخير أنا معالج نفسي؛ ما علاقتي بهذه اللعبة أصلاً؟! الوساوس تنهشني،

ربما يكونون قد دعوني ليستجوبوني فيما بعد عن أداء بعض الشخصيات، عن لغة أجسادهم لنعرف منها هل يكذِبون أم يكذِبون؟ ربما يريدون أن يضعوا بعضهم تحت السيطرة ويتهموهم بالجنون. السلطة ليست طيبة بما يكفي لتعالج واحداً لوجه الله حتى لو كان خادمها الأول، وربما ليتهموني أيضاً بالجنون ذات يوم.

كدت أضحك لكنني مرتبك وروحي ترتعش. ورغم الريبة والقلق وما سيطر عليَّ من هلاوس لم أستطع أن أتلفَّت يميناً أو يساراً أو أحكي لأحد، ما دام الموضوع أممياً فعليَّ الذهاب.

لا تسألني عما حدث، لا عن قلبي الذي وقع في رجلي، ولا عن قدميَّ اللتين كادتا توديان بي إلى طاولة أخرى، ولا عن كعب حذائي الذي انفلت من مكانه، ولا أرض لتبلعني، حيَّيتُه ما استطعت وقلت له ما لا أتذكره. تفحَّصني بابتسامة لزجة، نظر إلى نديميه، قرأ في عيونهم الرمادية رغبتهم أن يمد أياديه البيضاء.

أشار بقرف واضح وانطلقت المباراة.

الصياح الذي هب فجأة بعد همهمة القبور من المؤكد أنه وصل إلى الأمم الأخرى، وزجاجات العرق النائمة في الحقائب فتحت أعينها وتثاءبت، رغاوى الشمبانيا غطَّت ملابسنا وضخَّت رائحتها، ورائحة العرق التي كانت تودي بنا حل محلها عرق آخر، وهو يلوح بيده في الهواء، وعندما صفَّق نديماه انطلق التصفيق من كل الطاولات، رقصت الطاولات نفسها من فرط اهتزاز أجسادنا، حينئذٍ لاح له أن الكون كله يهتز ويصفق له، انتفض فجأة من مكانه فانتفضنا خلفه علَّه يغور من على صدورنا لكنه – يا للمفاجأة – لوح بيديه الاثنتين ثم ضمَّ قبضتيه وحركها في الهواء، في كل الاتجاهات ليصل دويها إلى كل الطاولات، لكننا رأيناهما تمر فوق رؤوسنا – هكذا قلنا بعضنا لبعض فيما بعد- لتعبر إلى كل أنحاء الكرة الأرضية، وبدون ترتيب مسبق أو اتفاق في السر – وهذا ما تأكدت منه المخابرات أيضاً كما قالوا لنا - رحنا نغني بصوت واحد هادر: «وحدة ما يغلبها غلاب»، ورغم أن اللحظة

المهيبة فرضت أن يرقص الجميع رجالاً قبل النساء بالطبع - فرجالنا هم الذين يرقصون في المناسبات الأممية أولاً - أما النساء فمسموح لهن أن يرقصن أولاً في المناسبات الوطنية ثم المناسبات الشخصية، وأن يطلقن الزغاريد قبل الرجال وأن يغنين الأغاني الوطنية بأداء عاطفي منقطع النظير، ومسموح بالدلال، إلا أن الجميع دخل في رقصة جماعية عفوية تقاطعت فيها أصوات ونغمات أكدت أننا انتصرنا فعلاً، أو قل إننا رقصنا عمداً لقتل الخوف أو نسيانه.

قبضته الكبرى المجمَّعة لم تهتز ولم ينفك بعضها عن بعض إلا بعد أن ارتاح إلى طاولته، ورغم أنها أخذت في طريقها زجاجة الويسكي وأطاحت بها فجأة من على طاولته، فإن الجميع صاح في نفس واحد: فأل خير.

قالت واحدة وهي تدق الطاولة بعنف: سنمسك بهم أينما كانوا وسيسَّاقطون على الأرض وتحت الأرض.

شربنا كأننا نشرب البحر، غنينا كأننا عبرنا المانش في ليلة باردة وتمايل آحادنا على واحداتنا، والفستان الذي كان طويلاً عند الوقوف صار قصيراً وقصيراً جداً عند الجلوس، ضحكاتنا التي كانت من المحرَّمات راحت تتقابل وتتعانق من طاولة إلى أخرى، وحقائبنا التي كانت منتصبة على الطاولات راحت تنام مفتوحة العينين والأذن ترقد تحتها، الأيدي المرتعشة من وجل راحت ترتعش من وجيب أو إشارة نسائية محتملة، والمجد للقائد الخالد، وواحد يمسك بيد صاحبه يقبِّلها بوله. أدمغتنا طارت، لم نعرف متى قام عن طاولته ولا ماذا حدث، فقط انتبه بعضنا إلى وقع الكعوب العالية فنط من مكانه حتى وصل إلى طاولة أخرى، هكذا يكون الالتحام القومي الأممي في أشد صوره نصاعة وشفافية.

صمتٌ قاسٍ يهب فجأةً بين فترةٍ وأخرى، لا نعرف هل هو من الخارج أم من دواخلنا؟ نعتدل في جلستنا بسرعة البرق كجنود يتامى وقعوا في الأسر ثم نعود إلى حالنا بأصوات عالية مرحبة نداري بها وجلنا.

الجنود لا يريدون من الحرب سوى السلام.

رحنا نعبُّ الشراب، نفتك بالقناني، كنا نرى الأكواب خيالات، لكننا للأمانة وحسب ما أتذكر أو كما حكوا لنا وتم تعميمه كنا سعداء، رحنا نطوف طاولات بعضنا، لا لنسلم بل لنحضن، لا تعرف من حضن من، لكن الأحضان أصبحت فرض عين.

كنت متماسكاً خشية أن يسرق أحد حقيبتي أو أن تضيع مني فأضيع معها، أوقفت الشراب وطلبت القهوة، كنت أريد أن أصعد إلى غرفتي صاحياً أردد بصوت مسموع: «وحدة ما يغلبها غلاب».

قال أحدهم: تشرب على مهل كأن البحر تحت قدميك، قال آخر :دعه، أممي جديد دماغه صاحية ولا يريد أن يهبط إلى قعر الدست، وبنبرة متهكمة: أنت على الحافة في منطقة الأعراف، أنت لا تعرف معنى أن تغطس إلى قعر البئر وحذاؤك كبير كحذاء فيلليني.

غطسوا بعدها في السلام، سلام الهذيان الذي قد يحمي البعض من الدقات الواضحة للكعوب العالية، وقد يفزع الآخرون منه.

الليل يحاول الفرار وكبار الديكة في المنطقة بدأوا عملية الإحماء الأولى بالصياح، وديوكنا مالت رؤوسها من فرط الهذيان.

الذين استطاعوا، حَمَل كل واحد منهم واحدة إلى مخدعها أو سحبت كل واحدة واحداً إلى مخدعها لم يبق غيرنا، أنا وأممي آخر، انتهينا من التأكد أن الجميع في مخادع الجميع، فجأة انتبهنا على حقائب بدون أصحابها، حقائب مقدسة، ممتلئة بما هو أهم من الوصايا العشر، لو اكتشفها أحد لضاعت رقابهم، ألهذا الحد تجردوا من المسؤولية!!

بوجل وافر حملناها معنا، لم يكن غيري، لم يكن غيره، يسألني عن غرفتي، أسأله عن غرفته، يريد أن يدخل عندي، أريد أن أدخل عنده، أخيراً وقعت القرعة على رأسي، دخلنا إلى غرفتي والخوف يأكلنا، بحقائب

مفتوحة، على فوهاتها تبين قصاصات مبعثرة أو دفاتر صغيرة، هو حمل ثلاثة وأنا اثنتين، أقسم لكِ برأس القائد البطل أننا لم نتلصّص، اعتبريه فضولاً في مدينة كلها تلصص، عينا رفيقي اتسعتا من باب الغرفة إلى شباكها، وحدقتا عيني وصلتا إلى أعلى شعرة في رأسي:

يا خبر أسود

يا خبر أبيض.

غير معقول!!

كان الجميع طوال السهرة يسكر ويكتب عن الجميع، البعض كان يكتب لكنه فضل مخدع واحدة أمية على الحقيبة، ونسي دفاتره.

بعد أن أكلنا الصمت، بعد أن وصل الخوف إلى أبعد وريد استجمعنا عيوننا ورحنا نقرأ:

السيدة فلانة بان كيلوتها الأحمر عمداً.

السيدة علانة همست لجارها: يجب أن نشرب في صحة القائد ونسكر وننام على شرفه الليلة.

واحد زائد واحد يساوي اتنين، تقسم تضرب تطرح، الناتج صدام حسين.

يا خبر أسود.

يا خبر أبيض.

على تلك الطاولات لا تعرف من معك ومن ضدك، لكن النتيجة دائماً أن الجميع ضد الجميع وكرامر ضد كرامر.

واحد قال: الرئيس فعل كذا ولم يقل السيد الرئيس.

إسرائيل أسقطت طائراتنا كالعصافير فاصطادوا العصافير وأكلوها.

وزير الدفاع خطب ست عشرة امرأة كلهن رفضنه، وبعد أن أصبح وزيراً و زِيراً جمعهنَّ مع أزواجهن على مائدة الغداء في بيته.

السيد الرئيس حول بلدنا من لا شيء إلى رقم.

الرئيس حولها من رقم إلى لا شيء.

كان يهرش في بنطاله ويأكل السيدة بعينيه.

الذي طلب الإذن بالشراب يشرب على مهله، ببطء شديد يثير الريبة، ولم يرتفع صوته في الأغاني الوطنية، وحذاؤه كان كبيراً كحذاء فيلليني.

يا خبر أسود.

لم أجد من يرد: يا خبر أبيض.

انسحب الرفيق الأممي خلسة وترك كل المصائب عندي، لا أعرفه ولا أعرف اسمه.

ربما كانت حقيبته واحدة من الحقائب.

الحقائب أربعة فقط!!!

أعدها وأنا أرتجف وأنا لا أرتجف، أكاد أموت من الرعب.

أية مصيبة وقعت فيها، هل أتركها هنا، أتجاهل الموضوع وأرحل؟ سيمسكونني ولو كنت في بطن أمي أو بطن جارتنا، هل أتسلَّل وأضع واحدة أمام كل باب؟ في كل دور مسؤول أمن يلبس ملابس عامل النظافة، وفي هذه المؤتمرات يعملون أيضاً بدل عمال طلبات الغرف، ولو خرجت بها لرحت في خبر كان، ولا حاجة إلى كاميرات المراقبة، لا نستوردها من الخارج ونوفر ثمنها فالحيطان لها آذان وعيون، رأسي في قلبي وقلبي محل قدمي، وذراعايَ وقدمايَ تخشبت، فلألقها في الشارع الهادئ والجميع نيام أو مشغولون بالحب الأممي، كلمة مرعوب لا تصف حالي، وكلمة

خائف يجب أن تخرج من اللغة لتحل محلها كلمة أكثر قدرة على التعبير، لو ألقيت البضاعة لتلقفها من لا أعرف أنه موجود، لكنه موجود.

مددت رأسي خارج الشباك، صور الرئيس وأبنائه تعبئ الميدان، تحرسه عن آخره، انسحبت إلى الداخل مذعوراً، لا شك أن عيني الرئيس ترياانني، هنالك كاميرات مزروعة داخل التماثيل، داخل كل عين وكل أذن وأنف، تسجل كل لقطة، كل صوت ونأمة في محيطها، لا يفلت صوت ولا حركة، داخل كل عنق وجاكيت في جيب أعلى أو أسفل، داخلي أو خارجي، في جيوب البنطالات، داخل الجوارب والأحذية ومعقودة حتى بأربطة الأحذية، أكاد أقع من طولي، استجمعت ما تبقى مني ، لم أستطع النظر إليها ثانيةً، ترنحت حتى وصلت إلى الشباك الآخر، كان عمود الإضاءة يلقي ضوءه بصراحة على لافتة عريضة:

الإنسان الوطني لا يلقي القمامة في الشارع.

مشهد كان فيلليني ليحبه.

- قل آه.

- آه.

- قل آه.

- آه.

- قلها بصوتٍ أعلى.

- آه.

- قلها كأنك تصرخ.

- آه.

- اصرخ.

- آه.

خجلت لأنني رأيت علامات التعجب على وجوههم، ماذا حدث؟ هل اقترفت خطأ؟ هل هذا هو السؤال الأساسي ورسبت به؟ هل تلك علامة المجيدين من المخطئين؟ لكن لم يسخر مني أحد، لم تبد على وجه أحدٍ منهم علامة استهجان، كأنهم فوجئوا مثلي، رأيت من خجل الوجوه وحيائها أنني لم أقترف ذنباً، وتأكَّدت لأول وهلة أنني لا أستطيع أن أرفع طبقة صوتي، أن أعبِّر به عن الفرح أو الحزن، أو الصراخ به في كلتا الحالتين، يبدو أنني قلتها بطبقة واحدة، بنفس الطبقة والتون في كل المرات السابقة، مثل امرأة تنام تحت رجل لا تبالي به، هو غارق في غيِّه وهي تتفرج على التلفاز من خلفه وتصدر صوتاً واحداً كي تكتمل اللعبة.

كنا مجموعة من المعالجين النفسيين نتلقَّى دراسات الحصول على

الماجستير في بولندا، كانت الدول الشيوعية هي الوحيدة التي تستقبلنا كأبنائها وتفتح لنا كل الأبواب والشبابيك، ونحن نحفظ أسماء رؤسائها ونعرف صورهم وصور لاعبي الكرة عندهم، وكانت صفحة كاملة من صحيفتنا الرسمية تكتظ في كل مناسبة بصور للرفيق ليش فاليسا أو للرفيق كيم إيل سونج نعلقها أحياناً بجانب صور القائد الخالد في غرف صالوناتنا المتواضعة، كنا نجلُّه كأبينا، لكننا بالطبع لا نجرؤ أن نحبه أو نحب أبانا أكثر من القائد الخالد.

الآن أتذكر تلك الحكاية: مذيعة شهيرة وصلت متأخرة بعد ميعاد حلقتها بدقائق بسبب مظاهرة تؤيد السيد الرئيس في ذكرى المولد النبوي، دخلت الاستديو مباشرةً، معد الحلقة كان قد ترك لها الأوراق ومضى، راحت تقرأ على الهواء مباشرة ما كتبه عن مناقب الرسول وجهاده وما لاقاه من عنت، وأنه القائد الأول للبشرية ببصيرته النافذة وشجاعته، وأن العالم كله يستمع لحكمته صباح مساء، عن رأيه السديد ودماغه الاستراتيجية، وحضوره فينا وقيمة حبنا له: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أبيه وأمه».

نحَّت الأوراق جانباً، رفعت حاجبيها بملامح متعجبة وقالت باستنكار واضح: يا الله، كأنه يكتب عن السيد الرئيس.

كنا واهمين واقعين في خطأ كبير أنها عن الرسول، لكن استخدام المذيعين والصحفيين لها وبخاصة في البرامج الوطنية ومباريات كرة القدم التي نفوز فيها، صحح لنا هذا الخطأ الفاحش كما صحح لنا أخطاء أخرى وقعنا فيها بسذاجة!

رفع البروفيسور يده وسأل بلباقة: هل هناك أحد غير بولندي؟

- أنا.

- من أين؟

- من هناك.

- من أي دولة؟ بوجه باسم.

- أنا عربي.

- من أي دولة؟

- لا فرق، كلها سواء.

- قل آه.

- آه.

- اصرخ بكل ما بك من قوة.

- آه.

من الواضح أنني ما زلت أؤدي نفس الأداء القديم، وجوه زملائي تعكس الحقيقة دون الحاجة إلى مرآة لأتأكد.

من فضلك انتظرني عقب المحاضرة.

البروفيسور يبدو لأول وهلة كمبعوث أخير للملائكة على الأرض، عيون مطمئِنَّة، لكن أجمل ما فيها أنها تطمئنك أنت، تحت نظارة بعيون زجاجية شفافة، كأنها ليست نظارة طيبة، بل نظارة للعياقة تكمل الوجه الوسيم، وجه رائق كأنه لا يشرب سوى الحليب والحب، وشعر فضي يليق بممثل كبر في العمر لكنه شعر حي يكاد ينطق كأنه في الصبا، بعض الرجال عندما يكبرون في العمر ويقتربون من الوداع تغيب لمعة شعورهم وتبهت كأنها إشارة، أنف منتصب بكبرياء غير محدودب، وألفة تلم هذا كله تحت ابتسامة حنون.

- سوري؟

- سوري، مصري، تونسي، كلها بلاد واحدة وكلنا واحد.

بعد المحاضرة كانت يده الطيبة على كتفي وابتسامته تحاصرني وسؤال يتيم:

هل تعرضت للتعذيب من قبل؟

أنا في الحقيقة لا أتذكر شيئاً سوى التعذيب وأشياء أخرى قليلة.

انمحت ذاكرتي تماماً. بيضاء. وكل ما أريده هو استعادتها، أحياناً يخيل لي أنني يجب ألا أستعيدها، ولكن ما بقي منها يتراءى أمام عيني طول الوقت قططاً سوداء، أسأل نفسي: ألم تكن هناك قطط بيضاء، ألم تمسني امرأة، لم لا أتذكر قصة حب واحدة؟ كمريض بالزهايمر يرى كل الوجوه وينساها.

قصة غرام يتيمة بقيت في ذاكرتي لأنني أرى صاحبتها صباح مساء، هذه المرأة هي الوحيدة التي أتمسك بها الآن كي لا يمحقني الزهايمر، هي القشَّة التي أستعيد كل تفاصيلها لأستعيدني.

لا أعرف هل فقدت ذاكرتي فعلاً أم أن هناك من تواطأ عليَّ لأمحو كل شيء، أم تواطأت أنا بفعل القهر لأنسى كل شيء وأكرس روحي لشيء واحد؟

يده ما زالت تربت وأنا انتبهت.

هل تعرضت للتعذيب؟

لا يا سيدي، تعرضت للعشق.

-٣-

هذا ما حدث بالضبط.

باب غرفة الكشف في عيادتي ينفتح بهدوء، درفة تبتعد عن الأخرى، ثم ترى وأنت جالس مسمر في مكانك أن من فعل هذه الفعلة عجيزة هائلة، تندفع بتؤدة في اتجاهك، تهجم عليك، تتوقف، تبتعد الضلفتان لتناما كلٌّ في محرابها وتظهر هي بمحرابها، شيئاً فشيئاً، حتى تصل لاكتمالها المكتمل أساساً، كأنك في فيلم لشي الشهوات، وتم تكبير الصورة على مهل، مؤخرة لامعة ولا تقل لي إن الجونلة ذات اللون البيج هي من منحتها اللمعان، بل قل إن لمعانها المتوحش الرجراج هو الذي منح لونه وروحه للجونلة، «مؤخرة جليلة» هذا ما يمكن أن تقوله عنها بأدب وأنت تفتش بلوعة عن الوصف المناسب.

لا تعرف ماذا يحدث لك، وأي جزء فيك بالضبط لم ينتفض ويرتعش لتستند عليه، النساء وبعض الرجال يقيس الأنوثة بالصدر، ينسبها إليه، بشموخه، بدورانه، برجرجته، بوثبته، بهجومه، عليك كرأس حربة، بوداعته الماكرة حين يغفو، بصورته وهو ينتفض كرأس القط، حاضرة في الذاكرة وعلى طرف الألسنة، بعضهم يأخذ القوام بلبه، لكن العشاق الأكثر عدداً يموتون في المؤخرة وإن كذبوا.

تتقدم بثقل يناسب مركزها، تتمنى لو تفيق لتصبرخ على الممرضة، تتقدم حتى يبين أعلاها ويدخل الخصر في المشهد ليزاحم الصورة المتألقة، وربما يزيدها ويجعلها بؤرة المركز لتعود من خدرك وخيالاتك، تتذكر فجأة أنك الطبيب، أنت المعالج النفسي، لتقفز بمؤخرتك من مقعدك لتتبين

الأمر برمته، ترتطم بها عمداً أو سهواً وتحشر نفسك – وأنت شبه دائخ - بحركة مندفعة غير محسوبة إلى جانبها لتسحب الترولِّلي معها، ولا تعرف إن كانت سخونة جسدك قد وصلت لمداها ونضحت على ثيابك، كل ما تشعر به هو أنك اصطدمت بفرن عالي الحرارة، أنت لا تتوهم بالطبع وحتى لو فعلت فالرغبة ترتبط في جزئها الأسفل بالوهم، كذلك الحب.

تعتدل للأسف في وقفتها بعد أن زاحمتها، فتنهض كرمح أزرق لا تخطئة عينا ملاك الرحمة، والواجب يحتم عليك أن تلتفت إلى أشياء أخرى، إلى المريض النائم على المحفة، والصراخ يكاد يقطع صدرك فتنادي أخيراً على الممرضة.

تنادي بصوت لا يتخطى عتبة الباب فتنادي هي نيابة عنك.

تحاول أن تستعيد روحك وملامح وجهك، لكنك لا تستطيع أن تنكر وأنت تدفع بالترولِّلي بعيداً إلى زاوية الغرفة أن شيئاً مس حشاك، شيئاً كنت تتخيل أنه مات، بل بَصمْتَ على ذلك بينك وبين نفسك من زمن، وأغلقت دفاتر شهواتك بعد أن ختمتها بخاتم النهاية.

لا تأتي هذه الكهرباء سوى مرتين في العمر، وحتى لو باضت لأحدهم وجاءت مرة ثالثة فمعنى ذلك أنه سوف يحاسب يوم القيامة حساباً عسيراً.

لو لم يكن هذا الرجل مسجًّى أمامك كدجاجة مبلولة لربما تركته قليلاً في مكانه وسألتها هي عن حالته، واستفسرت وأزدت وأفضت.

زوجي.

دلقتها وهي تومئ بعدم اكتراث في اتجاهه.

جسد مقهور على السرير، يبدو هكذا لأول وهلة رغم أن جرمه يكاد يملؤه، المعالج يعرف الجسد المهزوم بنظرة، مرتخياً يحرك يديه بوهن من آن إلى آخر كأنه يقاوم، يحرك يداً واحدة في الهواء بقوة ويصرخ بغمغمات

غير مفهومه لا تسمع منها سوى لفظ رقبته، سأطير رقبته، ثم يعود مرخياً إلى وضعه الأول.

لاحظت أنه لا ينظر ناحيتنا، اقتربت منه على مهل، ممدداً في رقدته ووجهه ملويٌّ بعنف ناحية اليسار، مددت يدي مدفوعاً بأسى وافر أتحسس وجهه ورأسه بلطف وأنا أحاول أن أمازحه، لم تكن ملوية فقط، بل راسخة في مكانها الجديد، مستقرة فيه كأن كلاب الجحيم هاجمته فجأة وهو نائم يحلم بالجحيم، كتمثال شمع في متحف جارته مارلين مونرو فالتوى عنقه من شدة النظر إليها وبقي هناك، أو كواحد في سجن للتعذيب اغتصبوا امرأته أمام عينيه فأشاح بوجهه رعباً وجزعاً فتصلَّب على هيئته.

انحنيت أمام بشاعة المنظر.

حتى لو كنت تملك قلباً بارداً ككل الأطباء، يجب أن تنحني بأسف شديد أمام رقبة محنيَّة عكس اتجاه الحياة، القصة ليست في التعاطف وإن تعاطفت، القصة فيما تفاجئك به الحياة وهي تلعب بقسوة في مصائر البشر.

زوجي.. ضابط كبير.. اعذرني دخلت عليك فجأة من غير ميعاد.

تقولها كأنه غريمها في حلبة للمصارعة يجب أن تنتهي من أمره، كأن وراءها ميعاداً غرامياً ولا يمكن لأي شيء أن يؤخرها مهما كان، أو تريد أن تحضر حفل توزيع اليانصيب بعد أن اشترت تذكرتين وتأمل بالفوز، تفلت الجملة منها ولا تحاول أن تغيِّر انطباعي عنها.

هل يكون هو؟ ذلك الذي سمعت عنه بالأمس من جارتنا حين همست لي أن أتبعها بعد قليل، أخذتني إلى حمام بيتها، فتحت الصنابير وقامت بتشغيل دش المياه، قالت إن ضابطاً أقام علاقة مع زوجة رئيسه ، كان يلعب في ظهره طوال الوقت، وعندما اكتشف الرئيس الحكاية تبادلا رفع الأسلحة فيما بينهما، وأن الفضيحة لفَّت المدينة همساً، ولم يجرؤ أحد

على البوح بها علناً، لكن ما كشفها وأبان المستور ما تردد أن معالي الوزير- ضغطت على لفظ معالي ومطته - جاءت تأشيرته على تقرير الواقعة بجملة فضحت الموضوع: ينقل الركيب ويوقف المعرص. جملة نقلته من الهمس تحت الدش إلى الهمس فوق السرير، ومن ساعتها التوى عنق المعرص ناحية اليسار، فضحت الموضوع لكن لا أحد يستطيع أن يحكيه فعلاً إلا تحت الدش.

أيمكن أن يكون هو؟ أيمكن أن تكون هي! يا خبر أسود، مالي ومال هذه الحكايات التي يكون الضباط طرفاً فيها، أنت تكره الضباط أكثر من الذي خلقهم، تمقت رائحتهم وظلهم الثقيل على الأرض، وستقف أمام الله يوماً لتسأله سؤالاً واضحاً: لماذا خلقتهم؟ لماذا أطلقت أيديهم وأرجلهم على البشر، لماذا لم تكفها؟ هل تعتذر وتصرفهم لطبيب آخر بحجة أنه الأقدر على علاجه، لا ضميرك المهني ولا الشخصي يسمح، ولا يمكن أن تفكر مجرد التفكير في أمر كهذا، لكن هذا موضوع خطير أحد أطرافه وقع في قرعتك، ربما يكون هو، وستجد الدولة كلها بحوافرها في عيادتك وفي حياتك، وإن خرج حرف واحد سوف يأخذونك أنت، وقد يجرونك بكل بساطة إلى مستشفى المجانين لتنتحر الحكاية على لسان مجنون.

تقترب منه، لكنها تسحبك من يدك بلطف وافر كأنها تريد أن تحكي لك الواقعة.

تنحني مرة أخرى للعجز الإنساني:

- هه ما الأخبار؟

لا يرد.

مرة ثانية.

لا يرد

- قل آه.

- آه.

بصوت ضعيف منكس كأن أحداً قام بتعريته من الخلف ودخل فيه عنوة.

- قل..

كانت يدها تسحبني إلى الجهة اليمنى بعيداً عن عينيه، وبدون مقدمات قربت وجهها من وجهي، تكاد تلامسه، النمش على وجهها حزين وأنا حزين، وبلهجة حادة بأبعد من المرارة قالت: هذا الرجل عذبني خمسة وعشرين عاماً.

صهد وجهها ألهب وجهي، وشرر عينيها لم ينقص حلاوتها، لكنني أُخِذت:

هذا الرجل - لا يستحق لفظ رجل ولا رماده- اعتلاني من الخلف بسلطته وجسمه خمسةً وعشرين عاماً.

يحدث هذا في عالم الحيوانات فقط، لكن هناك من تطلق رائحة تعلن عن رغبتها وتمنح الذكر فخر اقتناصها، تمنحه أن يتيه بذيله وحين تخفض عينيها تخفضهما دلالاً، حتى الفرس ترفس حصانها برجليها لا علامة على الرفض، بل تدق الموسيقى قبل النزال.

صوتها يعلو وأنا أحاول أن أختلس نظرة إليه، لكنني مأخوذ من الموقف رغم كل خبرتي.

لم يدخلني مرة واحدة من الأمام إلا بعد أن دخلني من الخلف، ولو نسى مرة ولعب ضربة البداية من المنتصف فإنه لا يكمل هجومه الوحشي دون العودة إلى الخلف.

هذا الرجل انتهكني طول عمري، اغتصبني كل ليلة مكنته فيها الطبيعة البشرية، لم يعتزلني يوماً إلا في الإجازات.

لا تقلق، الإجازات في الغالب كانت إجازة من المنزل، لم يكُ يحضر

إلا نادراً، لكن ظله يحوم في رؤوسنا طوال اليوم وطوال النوم.

حاولت أن أهدئها وأسحبها لمنطقة حوار، شددت لها كرسياً، لكنها أبعدته برفق: أنا مكتومة طيلة السنوات الماضية، كان يمكن أن أموت دون أن أحكي، دعني أحكِ.

لا تعرف الآن من المريض الحقيقي؟ اختلست نظرة ناحيته فوجدته هاجعاً.

لم تدع لي فرصة.

عمرها بالكاد على حافة الأربعين، وجه لواحدة من نساء أميركا اللاتينية، بخمريته التي تدير أفضل عنق إلى اليسار حين مرورها وتبقيه أيضاً على هذا الوضع، ميزة يدركها كل من له قلب أو أرخى عينيه وهو شهيد ليعرف أن الأممية التي اتبعتها مدينتنا لا يظهر جمالها إلا في أرواح ووجوه النساء، لا تعرف عندما تجلس في سوق الجمعة عند صديق لك ترشف الشاي أو تشرب ركوة القهوة على كرسي، لا تعرف من أي بلاد هبت هذه الوجوه والأجساد، تركية جركسية أميركا لاتينية، بلغارية شيوعية، تشيكية حيث التشيكيات أجمل النساء، خلطة سحرية يمكن أن نؤكد بها على ضرورة الأممية وعزتها ومدى رفعها للروح المعدنية وغير المعدنية، وجه يقف فوق رمح من الجحيم، وبركان يبقبق على وشك الصهيل.

من فضلك لا تفكر فيه وانتبه إليَّ، تقول بصوت خفيض لكنه يبخ ألماً، صوت محروق:

أخذني بعد امتحان البكالوريا بيوم، غصباً عن أهلي، عن أبي الحنون المستور الذي بال وأنكر، وأمي الحنونة المرعوبة التي باركت أمامه وبالت أيضاً واعترفت، أخذني غصباً في فرح كبير، ضابط في بلاد لا تتسع سوى للضباط والنساء، أخفى أبي دمعه فأصيب بالسكر، وأطلقت أمي دمعتها فزغردن تحيةً لدموع أم العروس، كان رماني يشهق ويغني على صدري

لكن تينتي لم تنضج بعد، إذا لم ينضج التين فطعم الجميز أفضل منه كما تعرف، كان أن أدارني لوجهة أخرى، أخذني من خلفي، كسر المرآة قبل أن أرى وجهي فيها.

لتقابل الوجوه في المخادع طعم لا يمكن لواحدة أن تنساه، أنا لا أخجل منك. أنت طبيب وليس عندي ما يمكن أن أخجل منه في المستقبل - سأضع الخجل في الماضي، جئت به إليك لا لتعالجه، بل لتتفرج عليه.

- يا سيدتي.

لا تغضب أنا لا أكذب عليك أو قل إنني قلت ذلك من فرط الألم، جئت به ليُشفَى، لأنتقم منه وهو بكامل عدته، لست مثله لأنتقم من الضعفاء والمغلولين.

الآباء ليسوا كالأمهات، لا يسلمون بناتهم للرجال راضين حتى وإن فرحوا كما نقول بسترهم، تظل في قلوبهم غصَّة لا يحكونها، يعرفون طبيعة الحياة ونداء الأجساد لكنهم لا يتخيلون أبداً أن أحداً اعتلى بناتهم حتى ولو شاهدوهنَّ حبالى.

الزلمة الذي تراه نائماً أعادني ذات يوم لأهلي - ليس شرفاً منه كي لا أظل وحدي في المنزل طيلة يوم كامل يقضيه في العمل- وإنما فقط ليعتليني وسط أهلي، حتى يصل صراخي إلى آذان من لم يوافقوا عليه، لأن أبي تفوَّه بجملة واحدة: إنه لا يعترض على العريس لكنه لا يحب الضباط، زواجي غصباً رمى أبي تحت رحمة السكر والضغط وصراخي كل ليلة رمى به إلى المقبرة.

كان قبل موته قد قرَّر الحج، انتهزها فرصة ليدعو عليه بما أنهم أغلقوا أبواب السماء هنا أمام الدعوات، انتهز هو الفرصة ووضعه في الرحلة الفاخرة للضباط وأهاليهم ليشعره أن يده عليه، وعندما عاد سأله ماذا رأيت، أجاب أبي: وجدت جبابرة الأرض ينحنون لجبار السماء.

لن أطيل عليك، سآتي إليك كثيراً وأكمل الحكاية.

أربِّت عليها بعيني، أتمنى لو أمد يدي، لكنها تحقق الأمنية وحدها وتمسكها:

زوجي ضابط كبير، كبير الضباط المكلف بالإشراف على التعذيب، هذا ما لم أعرفه طوال عمري وعرفته بالصدفة مؤخراً.

كنت أعتقد أنه مكلف بالتعذيب فقط في المنزل.

تصمت ووجهي يتحول إلى حجر، أكاد أبلع لساني غصباً أو أتقيأ قلبي.

تقترب مرة ثانية من وجهي:

تعرف، لا تغضب مني، أنت معالج والصراحة هي أساس اللعبة ليُشفى وأُشفى، لا خجل أليس كذلك!

نعم يا سيدتي لا خجل، لكن..

تغير النظام، الليلة التي يعذِّب فيها واحداً وينال اعترافاته يدخلني من الأمام ليرى وجهي ويتلذَّذ باعترافاتي، والليلة التي يخفق فيها مع مسجون يدخلني من الخلف لينتزع اعترافاتي، أي لينتزع اعترافاته، هكذا فهمت سبب الحكاية فيما بعد.

يطفئ الجريمة بجريمة.

الخيل لا تشرب إلا على الصفير وهو لا يشرب إلا على النفير.

خمسة وعشرون عاماً من الاعترافات القسرية، حتى وقع المحظور.

صمتت لتأخذ نفسها، كانت تتأملني بهدوء كأنها تعرف تماماً ماذا ستقول بكل روية.

لا بد أنها فعلاً رافقت زميله في العمل، انتقمت منه وانكشف الموضوع

كما قيل لي همساً تحت الدش، ووقعت أنا فيما لم أكن أتخيل حدوثه في الكوابيس.

دارت حول نفسها وتفحَّصت المكان كأنها تبحث عن مساحة للرقص، سحبت كرسياً، وضعت ساقاً فوق ساقٍ، نظرت إليَّ طويلاً:

فجأة خرج إلى المعاش، كلهم يخرجون فجأة، يباغَتون وهم المباغِتون دوماً، يعيشون في وهم حار كأنهم سيركبون للأبد، عاد إلى البيت دون وجهه، تركه هناك، كلهم يتركون سحناتهم هناك ساعتها، رجع بدون رأس، لم أتشفَّ به، التشفي لا يبلُّ قلبي ولا يطفئ حريقي المستمر كآبار بترول مشتعلة في الماء، لا يستطيع أحد أن يطفئها دون قنابل تنسف الحريق وتطفئه.

هل ينام ملك التعذيب بعد أن خرج على المعاش؟ هل يستريح ليعدِّد ضحاياه على كفوف يديه ورجليه؟ لا أسألك بل أجيبك: لا ينام.

حاول أن ينسى، يروح من حائط إلى حائط، يمسك صحيفة، يتملاَّها بسرعة ثم يمزقها فجأة: الخونة، الكلاب. يعود إلى غرفة النوم ولا نوم، هجره كأنه خصيمه، يرى على الحائط.. على السقف خيالات لا يعرفها، حاول أن يهرب، بدأ بمعاودة تسليته اليومية، حاول من المقدمة فأخفق، عاد إلى حبيبته المؤخرة فلم يحصد سوى الخيبة، سبع ليال عجاف يا سيدي، وهو يصرخ: ابن الكلب يهزمني ويخرجني على المعاش.

لا بد أنك تعرف أن الذين يخرجون على المعاش في عز السلطة يكسرون الأكواب في أول صباح يبدؤون بتتبع الجونلات القصيرة لبناتهم كأنهم لم يروهم من قبل، يسألون عن أسعار الخضار واللحم، ثم يبدؤون في وضع همومهم في اللحم، حاول أن يدخلني من كل الجهات لكن الجهات كانت مغلقة، كانت مفتوحة وهو أعمى، طرية ومسماره صدئ مرتخٍ، كان يتحسَّس الثقوب في مكانها يتأكد أن الباب ما زال موجوداً، لم يصدق نفسه، لم يصدق أن البحر ليس حنوناً على كل السفن التي تخترقه، حاول

وأخفق، حاول وأخفق، وأنا مثل حشوة باردة، أنت لا بد تعرف أن الرجال ينامون على اليمين ويتركون اليسار للنساء، أدار وجهه ناحية اليسار بعد الإخفاقة الأخيرة، نحو باب الغرفة كأنه تمنى أن يبتلعه أو يطير منه، وعندما صحا في منتصف الليل ليشرب - إنه يشرب مثلنا- كان وجهه كما تراه قد غادر الأمام والخلف متجهاً ناحية اليسار، التوى حيث صحا خجله، حيث رأى انكساره بأم عينيه واستقر كما تراه في مستقر أمين.

اكتشفت أن عنده دماً، يخجل مثلنا، راح يعدو كالمجنون في الشقة، يعدو من مرآة إلى أخرى، يكسر واحدة ويعود إلى الثانية، يكسر الثانية وهكذا، ضرب المرآة الأخيرة برأسه وسقط مغشياً عليه.

كل ما فعلته أنني أخفيت مسدسه حتى لا ينتحر ويترك العار لنا، الضباط الذين يخرجون على المعاش يتحسسون مسدساتهم أولاً، ينظرون إليها بعيون قلقة مقلقة، أخفيت المسدس ودفنت الطلقات، لم أكن أريد له أن يحظى بشرف الانتحار ولا أن يقتلني فأصير شهيدة جلاد، قاتلة جلاد أفضل بكثير، لم أؤمن يوماً أن البخت لمن بات مغلوباً، البخت لمن بات غالباً، لم أشغل بالي بالسكاكين والأمواس، هؤلاء أجبن من ذلك، لا ينتفضون إلا على صوت الذخيرة، ولا يستريحون إلا على رائحة المقذوف، لا يشفيني أن ينال شرف الاعتراف، هو ليس اعترافاً بالخطأ، بل عدم قدرة على الاعتراف بالحقيقة، أريده حياً ليموت بي.

لم أفكر يوماً في الانتحار، لكنني مرعوبة، ما زلت خائفة أن يعود، سأظل مرعوبة ولو قتلته، الرعب ليس شخصاً، إنه سرداب عميق في الروح، قشعريرة موت تسري في البدن، هو ليس شخصاً هو دولة بكاملها.

البيت كان قبراً لي، بروفة للقبر الأخير، الآن أصبح قبراً له، ليس بروفة، هو لا يحتاج إلى تمرينات على الموت، يحتاج إلى الموت نفسه.

أمرر كفيَّ على وجهي، أبتعد قليلاً مدعياً التفتيش عن شيء ما في مكتبي:

ليست مشكلتي الآن أنه خرج على المعاش أم أنها صاحبت زميله، للإشاعات قوة الحقيقة، بل تتخطاها بمراحل وتحل محلها.

سيقان الشائعة أقوى من سيقان الحقيقة.

عدت، جلست قبالتها، ربتُّ هذه المرة على كتفها، أمسكت بيدي وضغطتها، تملصتُ بخفة لا أريدها واتجهتُ نحوه.

وجهه الآن متصلب، جسده قطعة واحدة، ليس بها مسام، كأنه واقف في طابور ذنب، كأنه مستعد للقتل، هل يفكر في القتل؟

رحت ألاطفه، لأرى وقع الكلام عليه، كانت عيناه ميتتين إلا من ظل شرر نائم في القاع، قبل أن أقول شيئاً آخر كان يصرخ: يا أولاد الكلب، يا أولاد الكلب.

هذا الصوت مر على أذني من قبل، لا، لا أظن.

علو الصوت خرق روحي قبل أذني، أيكون هو أيكون هو؟ لا لا، لا أعتقد، بنطالي يكاد يهبط مني، ساقاي ترتعشان، تصطكان، استجمعت كلي وجاءتني الحيلة، اقتربت من رأسه قلت له: سبَّهم، اشتمهم.

سحبتني من يدي إلى بعيد: لا تقلق، سيسبُّهم أمامك طوال الوقت، لا يتوقف.

تملصت منها بلطف، قلت ثانية: سبَّهم.. الشراذم.. الأرانب.. الأوغاد.

راح يصرخ من أبعد مكان بأوداج منتفخة الآن: يا أولاد الكلب.

أيكون هو؟ أيمكن أن يكون هو؟

أصرخ.

- يا أولاد ال...

- أيكون هو؟

أغلب الظن أنه هو، لكن عليك أن تتأكد تماماً.

الرنة العميقة الآتية من بئر بعيدة لا يمكن أن تتصادف بين شخصين إلا نادراً، الشرخ الواضح من كثرة التوتر وجنون القوة، وسرعة نطقه وصراخه من أعماقه كأنه هو الذي يطلب النجاة.

القسوة الحقيقية تظهر الأصوات الحقيقية.

- يا أولاد ال

- نعم إنه هو، هو.

رحت أصرخ: يا أولاد الكلب، وهو يردد خلفي ويسبقني ويستمر كأننا في مباراة للسباب.

نعم إنه هو، هو من عذبني، لم أكن أنتظر يوم القيامة إلا لأطلب أن تعرض عليَّ أصوات كل الضباط لأعرفه، نعم هو من عذبني.

عشت عمري كله أدرِّب نفسي على ألا أنسى صوته، كنت أستعيده في كل ساعة، أردد كلامه بصوتٍ عالٍ، ثم أقول جُملي بنفس الصوت، أقلده، رحت أحكي الحكايات بصوته حتى نسيت صوتي، كنت أجلد نفسي به طول الوقت حتى خفت أن أصير جلاداً. المجرم قد يحوم حول مكان ارتكاب جريمته، والمقلد للجلاد قد يسقط في ثيابه ليصير هو، كنت أتعذب مرتين.

يداي ترتجفان، كفاي مبللتان، وروحي صعقها البرد....

الرعشة تعصف بكل كياني، أرى دمي الذي سفح أمام عينيَّ، أرى شراييني وهي تكاد تفرغ من الحياة، أرى مطرقة تتطوح فوق رأسي، أتوسل بصوت خفيض إلى المرأة أن تبعد المطرقة.

أقول جملة وأقطعها، لم يبقَ لي صوت لأنادي به.

سقطت كرة النار في حجرك.

هل أحلم؟ أريد أن أقرصني، أن أضرب الحيطان، أن أقرص المرأة لتصرخ لتصفعني وأتأكد أنه ليس حلماً.

أنفاسي تتسارع كأنني المريض، أرقب المرأة تنتظر عودتي، لست في حلم إذاً.

أنادي على الممرضة لأتذكر فجأة أنه ليست عندي ممرضة من أساسه، وأنني في عيادتي، وأنه هو.

الآن يمكن أن أهدأ، لا لن أهدأ، الآن يمكن أن آخذ حقي، الآن يمكن أن أرتاح أو أمشي في طريق الراحة.

لا لا، يجب أن أخنقه الآن.

لا أعرف لماذا نظرت إلى الحائط لأجد جملة فيلليني الخالدة التي علقتها يوم استأجرت هذه العيادة تكاد تنطق: لا شيء أصدق من حلم، الأحلام آخر ما يموت.

كانت المرأة تسعى نحونا تضحك، تقول بصوت واضح: هذا الرجل عذبني، وأنا أقول لداخلي بصوت واضح أيضاً:

- هذا الرجل عذَّبني.

هذا الرجل عذَّبني.

-٤-

لا بد من قتله.

لا أريد رأي أحد منكم، الحكاية ليست مطروحة للنقاش ولا للأخذ ولا للرد، القضية باتجاه واحد، أنا من تم تعذيبي، أنا لم أنم منذ عشر سنوات، ربما من عشرات السنين، كل ما أعرفه أنني أصحو، أصحو ولا أفيق، أقيم في أرقي، أحاول أن ألملمه من تحت الطاولة، يهرب مني، أجري خلفه، روحي أيضاً تترك مكانها في حلقومي وتهرب إلى إصبعي، تلاعبني وتقفز فوق السرير أطاردها وتطاردني، أمسك أول مقشة تصادفني في البيت لأهش بها الكوابيس التي تدور حول السرير، أحياناً أقعي بجانب السرير، أنظر تحته علها تكون مختبئة في ركن ما في الظلام، لا أنام قبل أن أفتح كل الشبابيك، لا أنام قبل أن أغلق كل الشبابيك، أعود عشرات المرات لأتأكد أن كل باب وشباك قد أحكمت ناصيته وأغلِق تماماً، لا أعرف من يحل مزاليج هذه الأبواب بعد أن أوصدها!! ليس هناك في البيت عفاريت وأبي قبل أن يموت وأنا في قبو أمن الدولة، كان يملأ البيت بالمصاحف كأي أب حنون اقتربت أيامه من نهايتها، أنام وكل الأضواء مفتوحة حتى يحضر من يحضر في الصباح أو الظهر لإغلاق مصابيح الكهرباء، لا أستطيع أن أمسها منذ رعدتني ذات يوم، منذ أن تم كهربتي بها وانطلق التيار في جسدي وارتعشت مفاصلي، ووقعت جدران قلبي كأن قدمي انزلقت فجأة في الجحيم وأنا أمشي على الصراط المستقيم، كان صراطاً غير مستقيم بالمرة.

هذا الرجل لا بد من قتله وبوسيلة تصعقه، لا تسمح له أن يرى ملامح ملك الموت، ليظل مصعوقاً وهو في قبره إلى أن تحين الساعة، لحظة

تكون الأقصر في حدوثها والأطول والأكثر تأثيراً في مداها، لا، لا بد أن يراه، ممكن أن أبطئ قليلاً في عملية القتل المباغتة ليرى ملامح عزرائيل جيداً ثم يموت مفتوح العين وصورته البشعة تتلألأ في البؤبؤ البشع، لترتسم على وجهه لحظة الفزع التي أذاقها للآلاف من أبناء طيننا، لا لا، لا بد أن يموت ذليلاً بملامح منهارة خاضعة خضوع المساجين له، حتى يرى من يقبره ويلقيه تحت التراب ما جرى لملامحه ليحكيها ولو تحت الدش للآخرين، ليعرفوا ماذا حل بالأسد الهصور، ماذا حل بعزرائيل الأرض.

ابنة ستالين كانت تروي عن والدها الجلاد الأشهر في التاريخ أنها رأت فزعاً على وجهه لحظة احتضاره لا يمكن وصفه، فزعاً ظل على ملامحه بعد موته ثم حل محلها وطبع أظافره، وظلت سنوات لا تستطيع أن تتذكر وجهه الحقيقي إلا بعد اللجوء إلى الصور.

يا لروعة الحياة، يا لدناءتها.

نولد من طين واحد، نعبد عدة آلهة وقائداً واحداً طول العمر.

اسمي مطاع.

وأقسم أنني لم أقتل أحداً في حياتي سوى النمل والصراصير، ولا أعرف أحداً ولا أعرف لماذا جئت إلى هنا، وأن أبي كان يطبخ يوماً وجارتنا يوماً بعد أن ماتت أمي، وأنني كنت أصعد إلى سطح البيت أطعم الحمام وألاغيه ولم أقصد ملاغاة جارتنا، وأنني أشتري أحذيتي من الشركة الحكومية، وأنني اقترحت على أبي همساً أن يشتري الثلاجة الجديدة من شركات القطاع العام رغم أن جارتنا قالت بصوت نبرته معقولة إن علينا أن نشتري من الشركة الجديدة التي تظهر إعلاناتها في التليفزيون ثم خفضت نبرتها إلى ما تحت الهمس: شركة قريب السيد الرئيس.

يد الجلاد الذي يقف خلفي أدارت وجهي ناحية اليسار بضربة واحدة، ضربة واحدة كأنها من مقلاع أو رأس فأس من الصلب السميك. الضربة

الأمامية تؤلمك وتقذف بكرامتك تحت قدميك، تتطلع إليها وتتركها مكانها، لا تستطيع أن تنحني لالتقاطها، الضربة من خلفك تطيح برقبتك خارج الغلاف الجوي، تجعلك شخصين منقسمين بالطول وتقذف بولك في سروالك.

- اسمي مطاع.

اكتب يا بن القحبة، اكتب كل ما حدث لك في حياتك.

اكتب كل نأمة كل جملة، لا تترك جملة أو تفصيلة أو إيماءة، وهل كنت تستمع لخطاب السيد الرئيس على الهواء مباشرة، كم مرة سمعته في الإعادة، هل خرجت في معسكرات الشبيبة، ما الأغاني التي كنت ترددها، وما النكت التي كنتم تضحكون عليها والنكت التي كنتم تقعون في حالة وجوم عند سماعها، من قالها، من أعادها، من رددها سراً، ومن نام معك في الغرفة في كل مرة، وماذا يقول أبوك في وِرده قبل النوم، وماذا يقول سراً، متى يخفض صوته ويغمغم حروفه، كيف بدأت علاقتك بجارتكم، كيف بدأت علاقة أبيك بها، من فيكما تقدم إليها في الأول، هل كنتما تتقاسمانها، لماذا تقدمت من عضو الحزب تطلب السماح للجميع بالشراب، من الذي دفعك، هل قمت بها من تلقاء نفسك، من أين أتتك الجسارة، لماذا لم تفكر ألف مرة قبل أن تتقدم، لماذا لم تتراجع، لماذا لم ترقص مع الراقصين والراقصات في الحفل الأممي، من الذي يزورك، مع من تخرج، هل كان لديك حبيبة في الكلية، فيمَ تتحدثان؟ هل تصدق ما يقال في النشرة الجوية، متى بدأ التذمر من محتويات النشرة، ولماذا، ولماذا كنت تضجر عندما تمطر رغم أن الأرصاد تقول إن الجو حار غير ممطر؟؟

صفعته على وجهي بغتة من الخلف جعلت الغيوم تمطر من عينَيّ الحارّتين.

كل يوم يلقون إليَّ بالأوراق والأقلام بينما تنهال الأقلام على وجهي لأكتب قصة حياتي من المهد إلى السجن.

هذه المرة: اسمي مطاع، لا أعرف لماذا أتيت إلى هنا ولا ما تهمتي؟ أنا معالج نفسي أشارك في حلقات البحث في الكلية وفي متابعة مشاريع التخرج، عند خروجي صباحاً إلى الكلية في اليوم الأخير لمراجعة مشاريع الطلاب بعد أن انتهت الامتحانات وجدت من يفتح الباب قبلي، ركلوني وداسوا على كرامتي وجسدي، فتشوا البيت لم يجدوا قصاصة، فتشوا كل شيء حتى خلف الصور وصورة السيد الرئيس، وسبَّنا أحدهم لأن التراب يكسو إطارها، وأبي المرعوب يستجوبني بعنف قبلهم: ماذا فعلت! ما أتذكره جيداً أن جارتنا الفاتنة خرجت بقميص النوم مشقوقاً من حافة الركبة إلى الخصر وبان تبَّانها، لم تنبس بحرف ولم تتحرك لتداري شيئاً، فقط تجمدت في مكانها كتمثال مرعوب، بشفاه مترجرجة مرتعشة كأن رياح الاسكيمو هبت ودخلت فجأة بين فخذيها، كل ما فعلته حين دفعوني نحوها بلا قصد أن همست في عينَيّ بعينَيها: سأنتظرك، أي والله العظيم هذا ما حدث ويمكن لكم أن تسألوها، كل ما حملته معي هو وجه أبي الذي كأنه خسر كل أيامه الباقية في رهان أحمق واحد، ولم يبق له سوى أن يعد الخسارة على أصابعه الكبيرة اليابسة. يتحسسها على ملامح وجهه المنكمشة كقطعة جلد متشققة من شدة الصقيع تتمنى لو أنني الذي مت بدل شقيقتي، كانت سترِبِّت على أوجاعه وتدلِّك أصابعه وربما صاحبت جارتنا بقوة ومررتها له لتدلك له أيامه الباقية، لا أسمع سوى أغاني مارسيل خليفة وزياد رحباني، وبالطبع فيروز ووديع الصافي ونصري شمس الدين وكل ما تقرره لنا هيئة الإذاعة، تربينا على صوت فيروز، خاصة أغنيتها التي كانت كلمة السر في حرب تشرين أمام إسرائيل: «خبطة قدمكن ع الأرض هدارة»، كانت خبطات أقدامكم أثناء اعتقالي أعمق من صوتها وأكثر تأثيراً فينا من تأثيرها في الجنود الذين خاضوا المعركة، دفعتهم الأغنية ليقفزوا في وجه العدو ودفعتنا لنتجمَّد في مواضعنا جذوعاً خاوية وهم مصيبون وأنتم مصيبون أيضاً، كل ما أتذكره أنني التفتُّ نحو أبي لأراه ولو لمرة أخيرة، فلم أجد غير وجه جارتنا المنسحق ولا أعرف بالطبع ماذا حدث بين أبي وجارتنا الوحيدة في غيابي.

سبعة أيام أتسلم الورق والأقلام لأحكي حكايتي كاملة كما كتبتها بالأمس.

لم تقل في اليوم السادس أن جارتكم رقعت بالصوت ثم أخفت فمها بيدها حين رأتك ورأتنا!!!

يا سيدي: رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان.

اكتب مرة سابعة وثامنة يا جرذ، النملة التي تمشي أمامك على الحائط حكت حكايتها سبع مرات، لم تخطئ في روايتها مرة واحدة، لم تغير مثلك في تتابع الحكايات، روت ما حدث منذ مولدها وكيف سرقت أول قطعة خبز من نملة جارتها وكيف التقطت آخر قطعة، سبع مرات متشابهة كل مرة بنفس الترتيب.

اكتُب كنملة يا بن القحبة.

الصفعة إياها تلتها صفعة أخرى ضرورية عدلت وجهي في اتجاهه الطبيعي:

أنتم نمل يا أولاد الكلب.

نعتقد طوال العمر أن الأشياء السيئة تحدث فقط للآخرين، مثل الموت، لكنها حين تحدث لنا نكتشف أننا كنا موتى وانتبهنا، طول حياتي أمشي جنب الحائط، كان غياب أمي فجأة عن البيت والحياة مدعاة لي ولأبي أن نتحسَّس أجسادنا، أصابتنا رعشة الموت مثلها، فقط كنا نتنفس، كان أبي يريد أن تجري الأيام على عجل ليطمئن عليَّ، كنا نقسم اللقمة دائماً بالخوف من المجهول، أبي يطبخ ويكوي، وحين دخلت جارتنا حياتنا كان يأكل فقط، لم أكُ أمشي جنب الحائط، كنت أمشي داخل الحائط، لم يكُ أحد يسمع دبيب صوتي إلا في رحلات الكلية، وأنا أغني أغنية مارسيل: منتصب القامة أمشي، كان مسموحاً بها طالما ظل الصراع مع الدولة العبرية بالأغاني، في السنين الأخيرة بدأت تخفت إلا في المناسبات الوطنية وهي ليست قليلة والحمد لله.

مسكين مارسيل خليفة، حين تستعر الحرب الكلامية بيننا وبين إسرائيل يخرجونه من قمقمه، وحين تنام ينام ساعتها في الأدراج نومة العازب.

هل تعرف فيلليني، وما علاقتك به!!!

الدنيا كلها تعرف السيد فيلليني يا سيدي، إنه رفيق أممي، نحن نرى أفلامه وندرس شخصياته وكيف يتعامل معها، فيلليني شاعر وليس مخرجاً فقط يا سيدي.

- مخرج يا حيوان، مقيد في دفاترنا أنه مخرج فقط.
- لماذا استعملت في قراءتك للأفلام تعبير العجول الكبيرة؟
- يا سيدي، إنه تعبير استخدمه في أحد أفلامه عن الشباب العاطلين الذين كانوا يتسكعون على أرصفة الشوارع، يتحرشون بكل امرأة وحقيبتها، وأحياناً يتحرشون بعمرها ولم يفلت حتى الرجال منهم.
- أنت كنت تقصد معنىً آخر بالتأكيد، احك كما حكت النملة يابن القحبة.

والباقي معروف.

هذا الرجل لا بد من قتله.

أنا لا أحكي عن التعذيب، فمائة رواية كتبها كتّاب من مختلف بقاع العالم لم تشف غليل أحد ولا جعلت السلطة تتوقف عن التعذيب، ولا جعلت الجمهور الغبي يقف ضد التعذيب، أكثر ما كان يغيظني في الأفلام الأجنبية التاريخية تحديداً أن البطل يدافع عن الرعاع، عن كرامتهم، ويصرخ بصوته بدل أصواتهم، وحين يقدمونه للمقصلة يقفون في وجل يأكل حشاهم، لكنهم يصفقون حين يصعد إلى المقصلة وحين تقطع رأسه كأنهم قضوا على الطاغية، ثم يعودون إلى بيوتهم يمارسون الجنس من الخوف ومن بقية الحياة التي يرجونها، جنس قذر خائف لا يقاوم الموت، لا يعرف معنى للحياة ولا يطيل متعتها، ثم يعودون إلى بطل آخر يقصف أمامهم،

يتصايحون كأنهم يتفرجون على مباراة للديكة، وهكذا كأنهم بدون ذاكرة سوى ذاكرة البعوض.

مائة رواية ومائة كتاب وفيلم امتلأت بالدم وصراخ الضحايا ولا من مجيب، أحدهم من فرط الجوع والعطش كان يلعق حذاء جلاده، يلعقه ليعيش، ربما يجد عليه نملة هاربة أو مختبئة، وكتب روايته بعد أن كُتب له عمر آخر بعنوان مذاق النعل.

فيلليني لم يكن يكذب، كان يصرخ بالحقيقة في وجه الناس، هذا ما قاله لسائق تاكسي حين سأله: لماذا أفلامك صعبة ومفجعة وغير مفهومة؟

أجابه إن الحقيقة صعبة موجعة وعليه فالناس تعشق الأكاذيب.

عليك إذاً ألا تقول الحقيقة، حين تقولها لن يصدقك أحد، يجب أن تؤلف وتخترع ولا تنتظر أحداً يصدقك مهما كنت صادقاً.

لا بد من قتله، لا يجب أن أنتظر أحداً أو مذاقاً آخر سوى مذاق دمه، لا يحكِينّ أحد لي منكم عن الطبيب والرحمة والملائكة، وقسَم أبقراط، لو تعذب أبقراط نفسه لتنصل من قسَمه بعد أول صفعة، الصفعات هنا آتية من الجحيم وبيد ملائكتها الذي يعتقد هو أنه واحد منهم، لو شاهد أبقراط الأجساد وهي تتحول إلى جيفة حية ثم ميتة لحنث بقسَمه واقتلع أسنانه وأقسم قسماً جديداً ألا يجلس من أية امرأة مجلس امرأته، ألا يمد قطرة دواء لأحد أو يكتب وصفة لمريض، أن يكشط بسيف حاد كلمتي العطف والرحمة من قاموسه.

أنا نسيت الرحمة، لم أفعلها عامداً ولا بخاطري.

حين كنت أكتب كانوا يحذفون لفظ الرحمة من اعترافاتي ويضعون عليه خطوطاً حمراء، حين كنت أذكر رحمة أبي بي أو رحمتي به أو بجارتنا التي لم ترحمني نظراتها يوماً.

أحكي عن تعذيبي وحدي، أنا الآن فرد عنّين الروح، وهو أيضاً فرد برتبة جلاد، أو جلاد برتبة فرد، اشف غليلك وعقِّم جراحك، جراح روحك التي لم تندمل يوماً، هذا هو سبب علاقتك الخاصة بفيلليني التي لا يعرفها أحد، وبجملته التي عرفت طعمها الآن: لا شيء أصدق من حلم. حلمت أن تقابله لتقتص منه، وجاءك على ترولي برقبةٍ ملتوية معوجة، جاهزاً للذبح كما لم يحدث في أفلام فيلليني نفسها.

أنت الآن تملك أن تدفع برودة الموت بخطىً بطيئة إلى قلبه ليلفظ أمام عينيك آخر أنفاسه، كما كدت تلفظ آخر أنفاسك بين يديه رعباً، لا تتأخر ولا تفكر كثيراً، يجب أن تأخذ ثأرك منه وبسرعة، لا بد أن تكون حاسماً خوفاً من أية مفاجأة.

اقتله.

لا تنتظر عدلاً من أحد، لا تضع ثقتك في العدالة، ضعها فقط في غرائزك، وليكن نجاحك خاصاً بك، ولتكن أخطاؤك أيضاً، ثق بغريزتك، الغريزة أفضل من العقل، أفضل طريق إلى الحقيقة.

التعذيب قضية ضعيفة في ميراثنا وحاضرنا، عليك أن تثق في قوتك، في إيمانك بما وقع لك، ولا تتساءل عن عدالة القضية.

تقدم الآن منه، اقضِ عليه بطريقتك، اجعله يذُق طعم الموت في عينيك، اقطع رقبته بيده، ضع السكين فيها وحرِّكها بها، ميتته بيده لن تشفيك لكنها ستشقيه، أعطه حقنة هواء لا يُشفي بعدها أبداً تجعله يترنَّح كحوت حي فوق بركان من نار وحمم، يقفز عالياً من أوارها ثم يعود إليها، يطير من شدَّة سعيرها ثم يهبط في قرارها، ولن يستطيع أي طبيب أن يكتشف ذلك. كان ينادي على الطبيب في السجن ويصرخ أين الطبيب، ليعطيك حقنة تجعلك تعترف بكل شيء حتى بالهجوم على مدمرة إيلات، كانت عيناك معصوبتين وأنت تهمس لزميلك الطبيب، زميلك في المهنة

وتتقاسمان روح أبقراط معاً، وهو يغرز الحقنة في وريدك، تهمس: أنا طبيب، ليرد عليك: لا تقلق وأنا طبيب، لن أعطيك حقنة هواء.

كان يصرخ فيه أن ينتهي، وحين انتهى سمعته يتقدَّم، لا تعرف من أي جهة سيجيء، تتلفَّت برقبتك كمجنون، تقدَّم منك، لم تكُ تعرفه، سمعت فقط صوت الخوف الذي لفَّ المكان، سمعت وقع كعبه المدبَّب العالي، لم تسمع نفساً لأحد سوى أنفاس الشياطين، غير رائحة الوجل تعمُّ المكان، كان يسأل بصوتٍ عالٍ: أين هو؟؟

وأنا مرعوب رعب المؤمنين الذين أخطأوا بكبيرة ويرتابون بالغفران، أخاف من خيالي، وخيالي يخاف من الجميع.

أتذكر الآن حين كنت ضابطاً احتياطياً أركب سيارة إلى جانب السائق في مهمة عادية أن جندياً كان يشير إلينا على مدى الشوف، يحرك ذراعه بحركة متتالية في الهواء لنتوقَّف، ذعرت وسابت رُكبي من مفاصلها، خفت أن تحل بركة المياه في سروالي، لا بد أنني اقترفت خطأً وسأعاقب عليه، للدرجة التي يخرجون واحداً يستوقفني في الطريق ويعيدني من حيث أتيت، وحين توقفنا ودون أن أشعر كنت أؤدي له التحية العسكرية والجندي السائق يغمزني في جنبي: هو الذي يجب أن يؤدي لك التحية. الجندي السائق ربما لم تكن حقن الخوف قد دخلت عروقه، والذي زاد الطين بلَّة حين اكتشفنا أن تلويحته المتتالية العجلى المنذرة بالسوء كانت من أجل أن نوصله في طريقنا إلى أقرب مكان.

اقتله، قتله لن يميته فقط، سوف يميت الخوف بداخلك أيضاً.

اقتله، الصفعات الحارة والنظرات الحارة وأنت معصوب العينين سرقت نظرك، لم تعد ترى سوى الخيالات والأوهام.

لا أرى شيئاً، لا أراه، لكنني أشم رائحة صلفه، وصوته الهادر من سابع فضاء:

- هل كنت تربي الحمام؟

الحمام كان يمرُّ عابراً فوق سطوحي مثل سطوح الآخرين.

هل تعرف مأمون؟

مأمون من يا سيدي.

صفعة ثم هل تعرف مأمون؟

أنا لا أعرف سوى المأمون بن هارون الرشيد، وكل مأمون في التاريخ أشعل التاريخ.

لم أكمل جملتي، لا أعرف من أين تأتيني الركلات ولا كيف دخلت الكهرباء في جسمي ولا كيف خرجت ولا كيف أفاقوني ومتى، ولا أين نحن الآن.

لكن مأمون يعرفك.

هذا الرجل أعرفه ويجب قتله الآن، الآن عرفته من صوته، صوت لا يخرج من حنجرته وإنما يخرج من الهواء، صوته ليس مخيفاً، هو أكبر من الخوف، الخوف الذي نتنفسه بعد فراغنا من فسحة أغاني فيروز.

كل ما أتذكره أنه أعاد جملته: مأمون يعرفك يا حقير، قلت له وأنا تائه بالألم: يا سيدي أحضر مأمون، ضعه في غرفة وأحضر معي ثلاثة آخرين، ودعه يكلمنا وإذا عرف صوتي فأنا مأمون نفسه إذا شئت.

الصفعة التي تلقيتها ليست ككل الصفعات القديمة، كانت أنفاسه أمام وجهي ساخنة ويده محمية وهو يقول:

أنت تعرف فيلليني وتقرأ أيضاً قصص أجاثا كريستي يا بن الكلب.

لا بد أنه كبيرهم الذي علمهم السحر، في كل مرة يأتي تنكمش الحيطان ثم تتمدد.

وأنا معصوب العينين والروح، كأننا في فيلم، لا تعرف هل الدراما أمام الكاميرا أم خلفها.

- ما اسمك؟

- اسمي مطاع يا فندم.

- اسمك مطيع منذ الآن يا بن المحروقة، أعد كتابة كل ما كتبته وابدأ باسم مطيع، هو اسمك منذ الآن وحتى تموت قريباً.

ثم نادى بصوته الذي لم أنسه يوماً ودرَّبت أذني ألا تفعل، ودرَّبت روحي أن تتذكره جيداً في القبر:

- خذوه ولفوه في ورق سيلوفان.

خذوه ولفوه في ورق سيلوفان.

-٥-

هل جربت أن تصطك ركبتاك وأنت تقف أمام ضابط أمن الدولة في غرفة خانقة لا ترى منها سوى جدران صماء، كأنها بلا شبابيك، هي فعلا بدون شبابيك في قبوٍ لا تعرف كيف دخلته ولا كيف ستخرج منه، القبو يجعل فكرة العودة للحياة وهماً، أمنية مستحيلة، ساعتها ستعرف أن الجدران تستطيل فعلاً أمام عينيك بمزيج الخوف، بسمتها الكابي، بألوانها الحائلة الخانقة، تكاد تنطق بأسماء الضحايا، تستطيل حتى تعتقد أنها لن تتوقف كأنها ستصل إلى سابع سماء على تلك الحالة وأنها لن تتركك للسماء كي ترتاح ويرتاحوا، ثم تهبط وتضيق، نعم تضيق تكاد تخنقك وأنت تتمنى لو قدموك للمحاكمة الآن وحكم عليك الآن أيضاً وخرجت تتنفس الفرحة لأنك ذاهب للسجن.

لو خرجت للسجن من القبو لصرخت بعلو صوتك: إفراج، ورحت تمد في الألف على راحتك وأنت تلوح براحتك.

تتمنى لو أنك حشرة تستطيع الطيران لتمر من أي ثقب إلى نافذة الحياة، لو أنهم اخترعوا حشرة الحرباء كي تستطيع أن تكون صغيراً ومتلوناً كما شئت لتختفي وتهرب بسلام، حتى لا يضربك بغتة من خلفك مخبر ثقيل اليد عريض القفا وأنت واقف أمام حضرة الضابط خشية أن تحط كلمة منك على كتف سعادته فتكسر الرهبة في حدود المكان.

القبو مكان آخر غير السجن، جحيم آخر، القبو مكان تحت القبر، مكان الحساب على الأرض، يقيمه آلهة من البشر، لم تمر عليهم كلمة الرحمة في قاموس الحياة، لا رحمة ولا صراطاً مستقيماً تمشي عليه، بالكاد صراط غير مستقيم، جهة اليمين تؤدي فقط إلى النار واليسار تؤدي إلى الجحيم.

هل جربت ذلك عزيزي القارئ؟ عزيزتي القارئة أنا أعفيك من هذا المشهد، فأنا رجل أحب النساء ولا أتخيل مجرد وجودهن في هذا المأزق رغم أنه يحدث كل يوم.

هل جربت أن تنظر في كل الاتجاهات فلا تجد إلا اتجاهاً واحداً وسهماً واحداً؟

هل جربت طعم أن تجد جلادك الآن بين يديك، يدخل مريضاً لعيادتك وهو لا يعرف أنك تعرفه؟

أنت الآن تنتظره، لا تصدق نفسك كيف أفلتَّه في المرة الماضية، كان لا بد أن تقضي عليه، أن تنتهي وتنهي الحكاية كلها، هو ليس مهماً الآن على لائحتك ولا يجب بتاتاً أن يكون، أنت تقتله من أجل نفسك أنت، لا جزاءً له، لو قتلته مائة مرة لن تمسح خطاياه ولو ألقيته في نهر بردى، حتى نهر بردى سيرفضه، الأنهار لا تحب الجثث، الأنهار تحب الحياة، تحب أن يشقها مركب ولو بمغنٍ واحد، أن يتهادى العشاق على صفحتها بأغنياتهم، صدقيني إن الأنهار تحفَظ الأغاني وأسماء العشاق ولا تبوح بهم لحاسد.

حتى نهر بردى نفسه جفَّ من كثرة الأجساد التي ألقيت فيه، الأنهار تغضب من الجثث لأنها تفسد علاقتها بالبشر.

اسمي مطيع، نعم، لم أستطع أن أغيره منذ ولدت ثانية وخرجت إلى العالم، أنا خرجت واحداً آخر لذا استحققت اسماً آخر، عندما عدت إلى العيادة قمت من تلقاء نفسي بتغيير اللافتة من مطاع إلى مطيع، والصانع سألني بابتسامة باهتة متعجبة: هل لك أخ يعمل أيضاً معالجاً؟ أجبته بأنني أخطأت في اسمي أول مرة ولم أنتبه إلا الآن.

لا تتأخر عليَّ، أنا في انتظارك.

خرجت من عندك واحداً مطيعاً مع أنني كنت مطيعاً منذ البداية.

خرجت من تحت يديك بوجه آخر على مقاس اسمي الجديد، مطيع

اسم مناسب لي، بحواجب منتوفة بغلٍّ لم تسترد عافيتها بعد، وتهتهة خفيفة باللسان أستطيع أن أخفيها فقط حين أتحدث لمرضاي، لكنها تظهر عند الغضب، ومن المؤكد أنها سوف تظهر لو وقعت في الحب.

أنفي انكسر حين كنت أجلس القرفصاء على الأرض أمامك، تحطم من عدة ركلات متتالية، حين خرجت ورأيته كان قد تغير كأنه أنف آخر لواحد آخر، المنطقة العليا هبطت لأسفل وبدت كفوهة بركة، كتجويف صغير قبل المنتصف، كنت أغضب من أنفي المعوج الذي يبدو كقوس مكتمل وأمي تقول بشموخ إنها أنف العظماء فأضحك لأسرِّي عنها، شعري الفاحم شاب مرة واحدة، نطَّ السنوات وحده قبلي أو أخذني لعمري الحقيقي الآن، شيب بلا جمال ولا حيوية، بعض الشيب له حضور تجري خلفه جميلات وتهتف، شيب مفعم بالحياة. السلطة عادلة تصنع الأنف على مقاس الاسم، لا تترك اسماً جديداً وضعته دون أن توجِد له ملامح جديدة، الذين يألفون قصص الخيال العلمي لا بد أنهم سيصلون إليه، وربما كان ذلك هو خيال الجلادين عن كائنات الفضاء، أو عن كائنات الفضاء الأرضية مثلنا.

لا تبالغ، نحن فقط مجرد حشرات يحق لهم تحويرنا وبالقسطاس المستقيم على هيئتنا الجديدة.

عذِّبه إذاً، عذِّبه حتى تتغير ملامحه أيضاً، حتى ينظر في المرآة فيراك، يرى وجهك مرة ووجوه ضحاياه على التوالي واحداً بعد الآخر، دعه يضرب المرايا والحوائط، ينظر بعَتَه في أعين المارة، يسأل كل واحد منهم كيف صار أنفه وهل شعره أشيب، دعه يتحسس أنفه في الطرقات، ينظر إليه في زجاج السيارات الواقفة والعابرة، هذا ليس كافياً، لا بد أن تعد له الآن ما يستحقه، فكر في مائة طريقة لتعذيبه وانتقِ منها الأبشع والأبطأ، أنت الآن لديك أسنان، لن تستطيع أن تعيش وهو سليم، لن تستطيع أن تتنفس وهو يمشي على قدميه ويمكن أن يذهب إلى المقهى ولو وحيداً، ولو عنيناً.

لو أنك قتلت هذا الوحش لاستراح، لو أنك قتلت وحشاً منهم لعاد جسده بشرياً لحظة سقوطه، وأنت لا تريده بشراً، تريده أن يظل على حقيقته.

حياتك في موته معذباً أو عيشته معذباً.

تدور حول نفسك داخل العيادة المضاءة ليل نهار في كل الأوقات تنتظر الفريسة، هو ليس فريسة، بل أنت الفريسة، ليست لحظة عابرة يمكن أن تنجو منها، هي إيقاع يضرب رمانة الروح أياً كان السبب ثم يستقر.

لم تذق طعم الراحة منذ دخلت حتى خرجت، هل تصدق الآن أنك خرجت! تهرب من صوت التليفزيون، من صوت الأحذية، تخاف من الشارع لو مشيت فيه، ترتجف لو سمعت صفارة عسكري قبل أن تراه، وإذا رأيته تعدو كأنك تهرب من جريمة اقترفتها للتو، لا تتحاشى الطنين، مع أن أذنيك مليئتان بطنين يكفي قبيلة، لا تسمع صراخ الباعة والعابرين، سمعت من الصراخ ما يكفي لإنقاذ بلد بكامله من طوفان، نسيت كل شيء ولم تنس الصراخ، لم يكن يعذبونك في أوقات كثيرة، كانوا فقط يفتحون أبواب القبو لتسمع آهات الآخرين تضرب الحيطان وتهبط حادَة حارة في جوفه وجوفك، لوعة الآخرين أشد إيلاماً من تعذيبك، هي العذاب الحقيقي، منذ التاسعة مساء يبدؤون النشرة بموجز خفيف للأنباء، صرخة واحدة فقط، وعندما ينتقلون إلى تفاصيل النشرة كانت الصرخات تملأ الفضاء وتجعل النمل الذي كتب يومياته بجسارة يعود إلى قمقمه مرتعشاً.

هل تعرف عزيزي القارئ حين يحضرونك للاستجواب ولا يفعلون بك شيئاً سوى أن يتركوك فجأة في غرفة الضابط ثم تصلك معزوفة الصراخ الأبدي وأنت مقرفص على ركبتيك من الأساس ورأسك منحنٍ للأسفل فيدخل عظمك في بعضه البعض وحده قبل أن يدخلوه هم، لتصبح عجينة طيعة لينة يمكن حينها أن تعترف بسرقة حذاء بابا الفاتيكان دون أن يسألك أحد، ستذهب يوماً إلى قبرك عارياً، بكفنك فقط وصراخ الآخرين، لا بد أن العدل في السماء يقتضي ألا يسمع أهل الجنة صراخ أهل النار وإلا اسودَّت عيشتهم.

عذِّبه فقط حتى ينكر صوته ويعي أصوات الآخرين، حتى يعرف الفرق بين صوت الجلاد وصوت الضحية، هذه طبقة من العدل الذي تبتغيه.

أنت تخاف أن تحكي لنا كل الحكاية، نعم تخاف، احكِ لنا عن الرجل الذي رموه معك في قبوك المتر في متر، صاحب محل عصير يصنع توت الشام، يقدم عصير الرمان للزبائن وهو يضحك ويغني، يغني حين لا يغني صباح فخري من جهاز التسجيل، كل تهمته أنه حين وقف أمام موظف تسجيل المواليد ليسجل طفله في السجلات، سأله الموظف: ما اسم الأسد الجديد؟ فأجاب: بن لادن، نعم!!! بن لادن بصوت مأخوذ، ومن ساعتها وعينك ما تشوف إلا النور وهو يدفع ثمن كل جرائم القاعدة والتنظيمات الإسلامية في شتى أرجاء العالم.

كان صوته معروفاً لكل النزلاء، كانوا يعذبونه في أوقات رفع الأذان وأوقات الصلاة، خمس مرات في اليوم والليلة، ولا بأس بالأنفال في أوقات كثيرة، الصبح والضحى والشفع والوتر، يحافظون دائماً على الصلاة الوسطى عند المغرب، حتى ينام من يستطيع النوم قرير العين، وضعوه معي لنتبادل الصرخات على مسمع بعضنا البعض، واحد في غير ميعاد الآخر، كي تكتمل لعبة الخوف، الخائف لا يسند مرعوباً. في لحظة استراحة نادرة سألته لماذا جئت إلى هنا، قال: بن لادن. وأنت؟ قلت: فيلليني.

نظر أحدنا إلى الآخر كمجانين حقيقيين، واضح أنه لا يعرف فيلليني، أضفت: وأجاثا كريستي. أجاب: وزوجته أيضاً.

عابر سبيل يصنع التوت والرمان ويغني للزبائن أغاني صباح فخري اعتقد أن الحكومة والرئيس شمتوا في أميركا حين سقط البرجان فقرر أن يجاملها، أطلق على ابنه هذا الاسم التعس فلقي مصيراً أكثر تعاسة.

عذبه ما استطعت، لا تقتله، في أحد الصباحات أدخلونا إلى غرفة شديدة الظلمة، رمونا ككلاب جربة وتركونا، تركونا نحصي الكوابيس والفئران، وفجأة أضيء النور، وجدنا مشنقتين معلقتين في الهواء تنتظران زائريها.

عذبه، اصنع له مشنقة في قلب العيادة، ضعها على يساره، دعها تتأرجح حتى يراها جيداً برقبته الملوية واتركه يمضي بعدها لتستريح أنت.

أكثر ما آلمك حين رموا صاحب بن لادن فوقك ذات يوم بعد أن أقام الليل وقضى الشفع والوتر، رموه كخرقة، هو غائب عن الوعي وأنت غائب عن الحياة لتشم رائحته من الباب قبل أن يهبط فوقك، أبشع رائحة في الدنيا هي رائحة اللحم المحروق، كووه بالكهرباء في أنفه، حرقوا جلده فرحت دون تفكير تتحسس أنفك.

لا تستطيع الآن أن تأكل اللحم أو تنظر إليه، لا تستطيع أن تقرب البسطرمة أو اللانشون، تتحاشى أن تراها عند البقال حتى لا تتقيأ أمام الناس، أو تهرب وهم يتطلعون إلى مجنون.

أنت لا تعرف أساساً لماذا أخذوك، المصيبة حتى اليوم أنك لا تعرف ما هي تهمتك! لغز اسمه مأمون ولغز اسمه فيلليني وزوجته، كأنك دخلت السينما فضربك النوم من أول لقطة ولم تستيقظ إلا على صوت انسحاب الجميع، لا تعرف ما الذي أتى بك إلى هنا ولا لماذا أخرجوك، وما الموضوع؟ كهؤلاء الذين ضربتهم الغيبوبة وحين استفاقوا منها راحوا يحكون عن أنوار وملائكة وأنهم عبروا العتبات الأخرى خفافاً، الفرق بينك وبينهم أنك لم ترَ سوى الظلمات في قبو لا تعرف في أي طابق تحت الأرض، الفرق أنهم ذهبوا إلى الغيبوبة وعادوا كأنهم مسحوا كل ذنوبهم وتيقَّنوا من مصائرهم، أما أنت فذهبت إلى الغيبوبة بالأحذية والصفعات وسلوك الكهرباء وعدت تسمع طنين أصوات المعذبين، لم تعد في بالك أغنيات سواها، تصحو بها وتنام عليها ولا تعرف ما مصيرك.

تتذكر فقط اللعبة التي لعبها أحد أبطال فيلليني حين احتجزوه، وعندما بدأت دماغه في الطنين من أثر المفاجأة والركلات، تتذكر أنه خلع حزام بنطاله وراح يخط بحلقته المعدنية على الحائط اليوم والتاريخ، هم يريدونك أن تنسى التاريخ والأيام لتنحل خيوطك من بعضها بعضاً وتعترف بكل

شجاعة بقتل جون قرنق الذي قضى في حادثة طائرة، وأن تعتقد أن أيام الأسبوع كلها يوم الأحد الذي كمشوك فيه ليبقى واحد أحد في ذاكرتك هو الجلاد وصوته لتخرج من هنا طيعاً هادئاً.

كنت مصمماً كل يوم أن تصمد يوماً آخر، هم يحفرون فيك لتفنى وأنت تحفر الحوائط لتعيش.

تتذكر ما قاله فيلليني أن القتل واحد لكن يجب عليك ألا تتحول إلى خروف مفروم أو فروة ساخنة تحت الأحذية.

هذا السافل استغلك أسوأ استغلال، أوهمك بما تخيل أنك فعلته، أو بما تمنى أن تكون فعلته أو اقترفته، لو أنك كنت تدافع عن فكرة أو كنت منخرطاً في تنظيم عقائدي أو سياسي، أي تنظيم ولو كان تافهاً لتحملت الألم ووجدت مبرراً لكل ضربة جعلت رأسك تلف ليومين، ولتحملت قسوة التجربة.

فعل كل ذلك ليتخلص من شكوكه هو لا من شكوكه فيك.

عذبه إذاً ولا تتأخر، لا تُجلسنا أياماً لتقص علينا حكايتك، غيرك يريد أن ينتهي منه وربما منك، اخترع له وسيلة لم تُخترع من قبل، لا تنسَ أن آلات التعذيب لا يخترعها الضباط وإنما يخترعها علماء وأطباء خونة مثلنا، وأن كل السموم هي من بنات أفكار الطيبين ليتعذَّب بها طيبون مثلهم.

ملامح الجلاد لا تكشفه في الغالب، ملامح النصاب لا تكشفه إلا نادراً، لكن ملامح الجلاد المخصي واضحة للعميان، لا يا صديقي واضحة لمن كانوا معصوبي الأعين لا يرون سوى الظلام وصرخات الجلادين والضحايا.

الأصوات تضرب رأسك منذ خرجت، أصوات ثم يهبط الصمت، الصمت هو الذي يسحق المعذب سحقاً، اصمتوا، لا ينبغي أن يتحدث أحد ولو بهمسة، الأنفاس كلها للداخل، كلها شهيق، إن خرجت خلسة تخرج ساخنة حامية على الشفاه ثم تعود مذعورة.

كل يوم كنت تقلد صوته، أحضرت كل شرائط وديع الصافي بصوته الجهوري بطبقته الفخيمة ومواويله العالية المتسعة، ثم أحضرت أغانيه التي صنعها له الرحابنة في مسرحياتهم، وتعجبت كيف استطاع هؤلاء أن يستخرجوا طبقة حنوناً من قلب الصوت الهادر، كيف كان يغني كأنه يتكلم.

كنت تقلد أصوات الأسود والنمور والكلاب المسعورة، وحتى ذكر البط، بالطبع كنت تقلد صوت الحمام لنفسك.

القسوة الحقيقية تصنع الأصوات الحقيقية.

عذبه، أنت تسترد كرامتك فقط، حشرة كان يستحق القتل، وأنت ترحمه بتعذيبه فقط.

لا تقتله، السماء مزدحمة بالقتلى والأموات، والقبور ضجت من كثرة مرتاديها، وقلبك يوشك أن يغادر قفص الصدر.

أنت لم تفعل شيئاً ولا تعرف ماذا فعلت إلا إذا كانت محبة فيلليني تهدد السلم العام وتوهن من قوة الأمة.

من عاش على التعذيب يجب أن يموت بالتعذيب، ومن تلذذ بآهات الآخرين يجب أن يتقيأ آهاته وينزف جوفه قطعة قطعة على مهل، واحدة تلو الأخرى.

مهما عولجت لن ينفع فيك شيء، أنت معالج ولم تعالَج، أصحاب الحرفة يصابون بالحرقة، طبيب القلب يحذرك من التدخين وهو يدخن بشراهة أمامك، لا بد أن تشويه، يكفيك ما فعل بذاكرتك.

يجب أن تطيل أمد التعذيب، تستمتع إلى آخر رجفة من جبروته تنهار من حنجرته أمام عينيك، حتى تجف آخر دمعة في مآقيك.

كان يريد أن يكسر روحك بيده.

كان يريد أن يقتلك أول ليلة، يريد أن يلفوك في ورق سيلوفان ليكون كفنك، لتموت فيه مختنقاً أبشع ميتة.

لمن يحارب هؤلاء، من أجل من! من أجل ملك لا يرونه إلا في الكوابيس.

عذبه، حاول أن تعذبه، تخلَّ عن كل إنسانيتك، تخلَّ عن روحك وعن أغاني فيروز، لا يقتل المرء إلا عدم المحاولة، ما رأيك أن تجعل العيادة قفصاً كبيراً له تحاكمه فيها، اصنع قفصاً على مقاسه بالضبط، ضعه فيه كي لا يستطيع أن يعدل رقبته الملويَّة ليردَّ الاتهامات، دعه يرد معوَجّاً كأن صوته قادم من قبو ما إن يصطدم بحائط حتى يرتد إلى آخر، ما إن يرفع رأسه حتى يلمس قدميه، حتى يعرف معنى أن يكون في قبو اتساعه متر في متر، لا لا، اصنع له قفصاً كبيراً يجري فيه معتقداً أنه سوف يجد باباً مفتوحاً في أية زاوية من زواياه ثم لا يجد إلا صوت الريح، يستحسن أن تكون القضبان غير مستوية كي يكون صوت الريح متعرجاً مكسوراً مثل أصوات ضحاياه، تعالَ على روحك واقطع إصبعاً من أصابعك، استغن عنه، أنت فقدت الكثير، ثم أشعل النيران فيه وارمه داخل القفص واترك له العيادة ليشم أنتن رائحة على وجه البسيطة، أو اقطع إصبعه هو واجعله يتفرج عليه مشوياً مكوياً، حذار أن تفكر أن تقطع له خرطومه، دعه يرَه محني الهامة، مطأطئاً يذكره دائماً بمكمن وجعه وما يظن أنه عاره، لو قطعته ستخلصه من عاره.

لكنك تحتاج إلى شاهد آخر والشاهد موجود، زوجته، شاهد وقاضٍ، وسوط التعذيب في يدها، نظرة التشفِّي في عينيها، وهي ليست في حاجة إلى بندقية، لا تريد رميه بالرصاص، لا تريد رأسه محنيَّة بعد الرمي، هي محنيَّة أمامها وملويَّة قبل الضغط على الزناد.

هو يحتاج إلى الصلب، يجب أن نعلِّقه في العيادة كما علقنا في القبو بالضبط، دون مسامير ودون دماء تسيل حتى لا ينادي على صورة المسيح، أو تظهر لنا العذراء.

اتركه ثلاثة أيام بلياليها، ينعس في قاذوراته ويصحُ في غائطه ليعرف فقط طعم العذاب الحقيقي كما فعل بك، التعذيب ليس كسر الأنف ونتف الحواجب بالكماشة، هو أن تكره نفسك وتسلمها له وسخة جاهزة، قذرة طيِّعة يا مطيع.

هذا الرجل حطَّم ما بيني وبين العالم، هشَّم ما بيني وبين طعم أصابع جارتنا، كنت تلعقها وتصل إلى نهاية آخر بنصر مغمض العينين بإبهام مرتفع ولا تفتح عينيك حتى لا تخرج من الجنة، كانت أفضل منك، تلعقك كلَّك من قمة رأسك حتى ظفر البنصر، لم تترك إصبعاً إلا وأعطته حقه، كانت تحتفي دائماً وتغدق على الإصبع الكبير قرب نهاية الرحلة، وفي النهاية جاء بك هذا المأفون لتلعق حذاءه.

لو استعدت هذا الطعم لعفوت عنه.

أنت لم تسأل حبيبتك أبدًا عن حياتها خلال سنوات سفرك ، تخاف أن تسألها، هي أيضًا لم تحدثك عن هذا أبدًا، تخاف أن تخبرك، هو من غرس هذا الخوف بينكما وفيكما.

الحديث عن التعذيب ليس بالجمل المتوارثة، كل حكاية هي حكاية جديدة ومؤلمة حتى في الكتابة، الذين تحدثوا عن تعذيبهم قلة، والذين سكتوا هم الكثرة، بلعوا ألسنتهم خوفاً ورعباً، هو من أسكتهم، هذا الرجل أسكتني، جعل لساني خلف حلقي وعينَيّ بلّورات من حجر.

ألف حول نفسي داخل العيادة، أنتقل من شباك إلى آخر، أتلصَّص من فوق، من بصيص شباك على باب العمارة أنتظر ظهور المرأة، أمد عنقي حتى يكاد يلتوي.

أنت الآن تحتاجها لإقامة المذبح، عصفور واحد لا يصنع ربيعاً، تحتاج يداً أخرى، يد الله، مارادونا قال إنها يد الله في لعبة صغيرة ما بالك بلعبتك أنت!

المذبح القديم كان ملكاً عضوضاً للكهنة من الرجال، وأنت تصنع مذبحاً فاتناً بملكة فاخرة من النساء.

تحتاجها لتصفع السلطة بيدها، بيد إحدى بناتها، حتى ولو كان قد عذبها من قبل وذاقت المر معه، بل إن هذا أدعى، فرصتك على طبق من الماس، معك الحطب والنار، حطبك وحطبها وناركما، وهي الآن حائط صد لك، السلطة لا تحب أن يصفع أحدٌ أبناءها ولو صفعتهم هي.

تدوس عليهم ليؤمنوا بألوهيتها هي، تصنع منهم آلهة من نار تكوي جلود الآخرين لكنها وحدها من تطفئها.

يجب أن توقف هذه الملهاة وتعذبه لترتاح، يجب أن تخرج من هذه اللعبة سليماً.

تضحك بصوت عالٍ وتنادي: سليماً سليماً.

تجدها خلفك تنادي عليك كأنها قريبتك، تحطه وتعود إليك، لا تساعدها، تكاد تقول لنفسك هذه المرأة أعرفها من قبل لكنها في مكان بعيد في قاع الذاكرة.

منذ خرجت وأنا نسيت أو أنسيت كل شيء، لم أعد أتذكر سوى أبي وجارتنا وغيوم لنساء لا أعرفهن ربما تكون هي واحدة منهن، لم أعد أعرف غير ذلك وتفاصيل التعذيب، الوحيد الذي لم أنسه من أقربائي هو فيلليني، قالت إنها سوف تعود بعد قليل، سلمت سريعاً وتركت مؤخرتها الجليلة في قلب المشهد.

كيم كاردشيان توقف العالم على قدمٍ وساقٍ، وتشعل الشواطئ والبحار، لكنها لم تشعلك.

ما بالك الآن تفكِّر في هذه المرأة؟

ما رأيك أن تلعب لعبة أخرى تتواطأ فيها معها وتغتصبها أمامه وهي جاهزة للعبة، ومن المؤكد أنها سوف توافق.

عليك أن تغتصبها أمام عينيه، عند جانبه الأيسر كي يرى جيداً ما تفعله بها، ما تفعلانه به، اخلع ملابسها قطعةً قطعةً كما يليق ببحَّار عتيق يعرف للبحر نوَّته، كموسيقي يعشق نوتَته، أدر مؤخرتك تجاه وجهه، لا لا، قفا بالعرض أمامه، لا لا، خذها في الغرفة الأخرى وأغلق الباب كي يصله صوتها مكتوماً، لا لا، افتح الباب يا رجل كي تدخل الصرخات والآهات من غير سوء من أذنه اليمنى إلى اليسرى.

عذِّبه بتأوُّهاتها، بصراخها الأبيض.

وهو يصرخ في وجهي وأنا معصوب العينين:

هل تعرف فيلليني؟

السيد فيلليني..

لم أكمل سوى بصفعة.

لا سادة عندنا إلا نحن.

اغتصب روحه كما اغتصب روحك.

كل يوم جلاد غير الآخر ومحقِّق غير الثاني حتى يصل هو، صوته يسبقه ودكات كعبه المدبَّب تصم الآذان.

هل تعرف مأمون؟

يبدو أنهم لا يعرفون مأمون، هو يريد أن يقتل شكوكه فيقتلك أنت ويعذِّبك أنت.

حتى لو اعترفت، أنت مطلوب منك أن تبدي الذل، أن تكون مطيعاً ذليلاً، أنت أقل من إنسان.

لا أعرف إن كان يبلع ريقه أم يبلع دماءنا، أنا معصوب ولا أرى، لكن طبقة

صوت راحت تعلو، تجيء من بعيد، يصلك صدى الصوت قبل الصوت كأنك تسمع ال بي بي سي في عزها أيام الراديو، كأن الصوت يلف في فمه قبل أن يخرج مخشوشناً، مثل الطلقة التي لا تعرفين عزيزتي القارئة أنها تمرق في ماسورة بندقية مخشوشنة من الداخل، بها تعاريج دائرية منضبطة حتى لا تخرج من جانب الماسورة ولكي تندفع حادة مستقيمة، صوته حاد مستقيم، نبراته حارة قاطعة كأنه يلقي الأوامر يوم القيامة:

مأمون أفضل منك، مأمون اعترف عليك وأنت ترفض الاعتراف عليه لتنجيه من العذاب، أنت من تعذب مأمون الآن وليس نحن، مأمون يُشوَى بسبب صمتك، اعترف.. اعترف يا حشرة.

صراخ يشقُّ الحوائط التي تحاوطنا، وكل شيء فينا أصبح مبللاً.

الصفعة كالمرزبة تسبق الجملة، ورأسي في قلب الجحيم:

أنا أعرف مأمون يا سيدي، أنا أعرف مأمون، أنا مأمون يا سيدي.

تشاهد أفلام فيلليني وتلعب علينا يا حقير، نحن نعذبكم بالمعروف يا أولاد الكلب، بالمعرووووووووووف.

سأجلب فيلليني هذا من أذنيه وأعذبه أمامك.

وبصوت يكاد يخترق الحيطان:

خذوه إلى الثلاجة، ارموه في الثلاجة.

-٦-

هذا ما حدث بالضبط، وليسخطني الله على الهيئة التي يريدها.

كنت أرقص في فناء البيت، أدندن بأغنيات مسرحية «سهرة حب» للرحابنة، إحدى أجمل المسرحيات في تاريخنا، أترنَّم بالمقطع الذي كاد فيه البطل أن يرمي نفسه من على سطح البلدية لأن البطلة لم تحبه أو لم تلبِّ دعوته للغرام، حتى وصلت إلى المقطع الذي تقول فيه فيروز: «خدني وطير بشي غيمة والدنيي برود، وما في عاشق يا صغيري عقلاته كبار»، كنت أرقص تحت غيوم سبتمبر نشوان ذبيحاً كأنني كنت أفعل ذلك قرباناً لأتخلَّص من كل قصص الحب القديمة التي أخذت فيها كلها كروتاً حمراء، وربما كنت أستعيدها، فأنا من الفريق الصغير الذي يؤمن أن كل لحظة سعادة عشناها تستحق أن نضعها في الجراب الملوَّن وأن نعتبرها حرزاً نلوح به في الأيام القادمة، هي في حساب العمر لنا لا علينا مهما كانت النهايات، وأن نرقص عندما نستعيدها لنطرد اللحظات السيئة منها، ننفضها عنها، أو لنستعيد شوقنا نشحن به عيوننا حتى نستطيع أن نحب مرة أخرى وأخرى.

لا يجب أن نأتي بالسيِّئ من الماضي لنضعه أمامنا، بل يجب أن نرميه ونلقط فقط مواقيت البهجة ولو كانت قبلة واحدة أو حضناً واحداً حقيقياً، أو نتذكر أصابعنا حين تشتبك لأول مرَّة برعشتها التي لا تتكرر في قصة العشق مرتين.

نرقص حين يرتفع الفرح إلى ذروته أو حين يهبط الحزن بنا إلى قيعانه، ويرقص البعض أحياناً بالوجد ليتيه في ملكوت الوجد.

كنت أدور حول نفسي مغمض العينين من فرط نشوة الماضي، حين انفتحتا فجأة فوجدت جارتنا أعلى سطحها المواجه لنا وهي تصعد إلى أعلى نقطة في القرميد الذي يغطي سطح بيتها، تتعثَّر بفستان قصير من الخلف عرَّى ساقيها أمام عيون الملائكة كعودَي زان مصقولين، ربع فستان يبين معظم إمكانياتها تقريباً وتبوح بقية الخطوط والانثناءات تحته بما تبقَّى من أسرار، تصعد وأنا أرقص حتى وصلت إلى القمة، راحت تنظر إلى السماء كأنها ستدعو دعوتها الأخيرة أو لعلها مظلومة فاختارت الذرى مكاناً حتى تصل الدعوة بأسرع ما يمكن وبربع فستان يليق بالتخفف من ذنوب الدنيا، تتلفت حولها في كل الاتجاهات كأنها حين تقفز تريد أن تطمئن على أن أحداً لا يراها، وربما تريد أن يراها أحد لينقذها أو لتحظى بميتة جيِّدة وحكاية مثيرة عنها، ثم فجأة وجدتني وتلاقت عيوننا، فأجفلت وانزلقت ساقاها الشريفتان وأنا أصرخ فيها، أصرخ كمجنون وهي تنزلق وتنقلب حتى وصلت إلى الحافة، نهضت على ساقيها غير عابئة بجروحها غير عابئة بي، تحركت خطوتين فقط من مكان سقوطها حتى تبتعد عن مواجهتي ثم أعادتهما مرة أخرى بسرعة وقفزت عالياً فوقي، ورغم الآهات التي انطلقت لا أعرف مني أم منها، التقطتها رغم علو المسافة بما يليق براقص، بما يليق بحب الحياة، لقفتها ما استطعت بكل قوة روحي، أخذتني وسقطنا معاً على الأرض.

بنفَس متسارع بكل طاقة الخوف رحت أتحسَّس رأسها، كانت تتحسس رأسي، أتحسس جسدها، تتحسس جسدي، كنت أفليها، كانت تفليني، أدقُّ على وجهها وقلبها تربت على وجهي وقلبي، حتى استكانت أيدينا كيفما اتفق بحضن حلمنا به من سنوات وحصلنا عليه في لحظة محاولة انتحار.

- أنتِ بخير؟

- أنتَ بخير؟

نائمين على الأرض، باحة دارنا ودارها من الخلف مفتوحة إحداهما

على الأخرى، لم نتحرك من وضعنا كعاشقين نائمين في غابة، وجهانا متلاصقان، ابتعدت قليلاً لتراني، أخفت بسرعة لمحة ألم من وجهها:

- حاولت الانتحار لأنك لا تريد أن تراني، تريد أن تنتقم مني، ولولا أنني رأيتك ترقص لقفزت من مكان بعيد عنك، الدنيا أدارت ظهرها لي، لم تبق لي غير شهقة اليائسين، حين رأيتك ترقص وتدور تخيلت أنك تدور حولي وتفرد وجهك لي، قلت لا بأس مرة أخرى بالأمل، لذا تآمرت مع نفسي وقفزت في حضنك.

وضعت سبابتي على فمها وأنا أبتسم بوجهها، أفرد كل مخزون حناني لتهدأ وتشعر بالراحة، كانت أمي تقول إنني أخذت ربع حنان العالم وحدي وأنا أصدقها الآن، إذ أخذت في النهوض ممسكة بيدي بوجه مرتاح كأننا كنا نلعب العريس والعروس، وضعت ذراعي على كتفها فابتسمت ثم على خصرها فضحكت وانزلقنا إلى بيتها.

جارتنا، أخاف أن أشي باسمها في الرواية، منذ وقعت عيني عليها وأنا لا أنام الليل إلا إذا نامت، وهي كأنها تعرف، لا تذهب إلى سريرها إلا قرب الفجر، أقرأ دروس الماجستير الأخيرة على وقع حركتها وكمونها داخل بيتها، أتلصص عليها من خلف ستارة، من خلف كل الستائر، بملابسها الشحيحة، يكاد الشورت ينفجر من موقعه، كنت أتساءل: هل تخلعه لتغيره أم تقشره من على جسدها، في كل ألف وجه جميل تجد وجهاً ساحراً لا تعرف من أين يأتي بمدده، ولا من أي جهة أو معين يسحب الفتنة، ومن أي جهة سيباغتك، لا تعرف من أية مادة صنعت، ولا من أين تأتي كل هذه الهشاشة، من أين تلك المخالب الناعمة، وجه شاحب مدور نسجه صاحبه ثم تولى نقش ملامحه في الخارج ووضعها في أمكنتها على مهل، وسن مشطوف من حافة واحدة ليكتمل بهاء اللوحة بالنقصان، وجسد هو جسد الحكايات، تراها أميرة في الجونلة، امرأة في الفستان، سيأكل منها قطعة، ولو لبست كل فساتينها في يوم واحد لذابت وانتهت تماماً، ونصف إلهة وهي عارية أو نصف عارية.

شبق وأنوثة وجمال محير يخطفك ولا يعيدك، بروح متأجِّجة تطل من عينيها بغواية آسرة للقلوب.

لعبت معي لعبة الحب والموت والجنس والمال، فوقع سهمي في خانة الحب.

طفت معها كل المشاوير بالمدينة، جارتي.. وأبوها مشغول، كانت تسوق سيارتها باليسرى وتضع اليمنى على بطني، وأنا خجل متردِّد بأب طيب وأم تركتنا لوحدتنا فصرنا أكثر خجلاً، نحتاج إلى فدان من الحنان، أبدو كعاشق خجل حنونٍ وهي تريد عاشقاً ثرثاراً يسرقها من افتتانها بروحها، أريد أن أطمئن على أبي وهو يريد أن يطمئن عليَّ أيضاً، خطواتنا متردِّدة، أنفاسنا بطيئة، وشبح القلق من المجهول يخيِّم فوق أسرَّتنا لياليَ طوالاً، سأحصل على وظيفة قريباً أو سأنتظر المدة المطلوبة لفتح عيادة.

- انتظريني سنة واحدة.

- بعدك صبي، ذاكر دروسك يا شاطر.

تعيدها، تضع يدها على بطني وتهبط، تنزلق ببطء ثم تتوقف على الحدود، تتوقف طويلاً وأنا أحاول أن أسد مسام العرق في وجهي، تسحب يدها بخفة لتضرب سريعاً على ساقي كأنها تمزح معي، تضحك بهستيرية وتقول: أعفيك يا شاطر، مثلما تقول جورجيت صايغ لنصري شمس الدين في المسرحية بكل الحزم والسحر، تعبث معي، تعبث بي، ساحرة تلهو بقلب رجل توقن تماماً أنه ملكها ولا تعرف عن أي قلب تبحث.

أريد واحداً يشعرني بالأمان وأنت مثلي محتاج إليه.

تكمل: لا ترد، لا أريد أن أنتظرك كل يوم في الفيراندا قلقة عليك كأم على ابنها وأبيه، أنتما تحتاجان أماً لا زوجة، أريد واحداً أنتظره وأخشاه.

ثم تضحك:

- سأبحث لكما عن أم وابنتها، هذا أفضل حل لك ولأبيك.

أحسَّت أنها لطمتني، شاهدت يدي تبحث عن مقبض الباب وأنا أقول لها بحدة:

من فضلك توقفي وأنزليني.

- لا تغضب، سأحدثك بصراحة.

تصمت لحظة ثم تكمل: لا أريد أن أعبر بابكم لأستقر عندكم، أو تعبر بابي لتنام عندنا، أريد شيئاً آخر، أبحث عن مغامرة، أريد الزواج بالمغامرة مثل العشاق في الحكايات، أريد أن أطير.

أحسَّت باللطمة الأخيرة عنيفة على وجهي:

- أنت جئت متأخراً، قلبي وقع في المصيدة قبل أن تفرد شباكك.

ساحرة مجنونة وربما حالمة، يلعب بها شيطان عابث، ربما طفلة تبحث عن لعبة بعيدة ولو كانت رديئة، لا يرضيها القريب، لا ترى ما في يدها ولو كان ثميناً.

غامرت، تزوَّجت ورحلت، وأنا رحلت أيضاً لأغاني الهجر والحبيب المغدور، لم أجد في الأغاني الشامية ما يروي عطشي فرحلت إلى الأغاني المصرية لتحكي خيبتي، حين كانت تأتي مرة كانت تبحث عني، تنظر في عيني كأنها تبحث عن نفسها وأنا جمدت ملامحي كأنني واحد آخر، جمدت وحدها، وما يخفيه القلب تفضحه الملامح.

تتزوج المرأة بمن تحب، لكنها تتمنى أن يظل من أحبها قبله على منواله محروقاً مشوياً.

غابت ثم بدأت قدمها تعيد أغنية قديمة وتتردَّد في اتجاهنا مرة أخرى، ثم استقرَّت فجأة بعد أن أفلس الفارس المزعوم من الغرام، بعد أن فرغ الغرام من المباهج، بعد أن شبع وقفز إلى زهرة أخرى، هكذا قال أبي وضرب راحتيه إحداهما بالأخرى، وأنا كأنني لا أسمع ولا يعنيني الأمز برمَّته، طار صائد الفراشات ورجعت الفراشة إلى شرنقتها.

وأمها تقول لأبي: الصفعة كانت قاسية عليها، زئر نساء، ونحن طاوعناها لأنها وحيدتنا.

في السابق كنت أتعلَّق بشباك أو ببرج حمام لأرى منها ولو ظفرا، وهي تتبختر في أنوثتها المربكة لا تعطيني غير ظهرها، لم تخطئ مرة وتمن عليَّ بنظرة إلا لتتأكد أنَّني أسيرها، الآن تتحنَّط بالساعات علَّها تصادفني ولو لمرة لتقول إنها أسيرتي، وأنَّها يمكن أن تنتظرني وتخشاني.

الميلودراما أحياناً مطلوبة لتكتمل الحكايات، رحل أبوها في ليلة وأمها في الليلة اللاحقة، فاكتشفت فجأة ضرورة الحنان وسقطت في حجرنا.

تدخل علينا بعين واحدة، لا ترفع وجهها إلا لماماً، تطبخ لنا، في الماضي كان طبخها رديئاً وإن حنَّت علينا يوماً تحضره بنفسها، الآن صار شهياً، يبدو الطعام لذيذاً شهياً لا لأن الطباخ ماهر دائماً، وإنما لأنه يحب من يطبخ لهم، ربما لهذا السبب وحده يبدو كل طهي الأمهات أجمل ما في العالم.

لم تترك ركناً إلا وضخَّت فيه رائحتها، ولا ملاءة لم تضع أنفاسها فيها، لم تضن بشيء، تعلق ملابسها الداخلية وسط ملابسي، تضع شيئاً لي في أول الحبل وشيئاً في آخره، ثم تحشر أشياءها، تحشر نفسها في الوسط بغنج أو تفعل العكس، حاجاتها في الأطراف وحوائجي في الوسط، حطت كحورية بحر مستعدة لأن تعطي كل شيء مقابل شيء اسمه الحب.

تمنع نفسها عنك فتمتنع عنها، تتمنَّع عليها فتجري وراءك.

حكايات الحب تحتاج إلى طرفين، حكايات العشق لا تكتمل إلا بثلاثة.

تلعب مع أبي طول اليوم في البيت، قضيا على كل الألعاب واستقرا عند الشطرنج، يحتاج إلى تدبير وخطط، تكوي وتغسل وتطبخ لنا ونحن نطبخ لها من قلوبنا رغيفاً بالحنان، أبي ليس كبيراً ويحتاج الونس، تعامله كأب، يعاملها كثيراً كرجل، شهواته تستيقظ في عينيه، يحرك يديه صامتاً وهو يمشي داخل البيت كأنه يكلمها، لا تصده لكنها لا ترخي له طرفاً

طويلاً، عيونها قلقة تنتظر أن يبيض الديك، والديك لا يريد أن يقبل اليد التي صفعته، الديك لا يؤذن لكن لا مانع أن يلعب مع الدجاجة، تمضغ الطعام بتلذذ والذي يفعل ذلك لا يمكن أن يتظاهر به، كان فيلليني يقول: شهوة الطعام والجنس واحدة، والأب حائر في الوسط:

- لو تقدَّمت لها وهي صبية لوافقت عليها بالثلث.

يروح ويجيء:

- كلنا نخطئ الاختيار، لا تعاقبها اذاً بخطئها.

لو أنها توافق على أبي، ما زال صغيراً فتياً، أنجبني مبكراً، تضع حظها وحظه في قفة واحدة ويسعدان، سيجد عندها ما لا عند أحد، وستجد عنده قنطارين حناناً.

لا لا، ما هذا الهذر، هل جننت، ستنام تحته وهي تتخيَّل أنها تحتك، سترمي نفسها في حضنه وهي تستنشق حضنك ولو كنت في الغرفة المجاورة أو في أبعد محارة في أعماق البحر، ستقبله وهي تمصُّ شفتك، وإن أنجبت ستنجبك أنت منه.

لكنه يحبها، لا لا، هو يحتاج إليها، يحتاج إلى طباخة وفرج موسمي وقسط كبير من حنان، ويد طرية تمسِّد أصابعه وعظامه وتدغدغ كهولته، والخيوط دخلت في بعضها بعضاً، وعلى أحد أن يفكَّ البكرة، أن يرمي قوس قزح بالنبال ويفصل الأخضر عن الأزرق.

وأبي استفاق وأرخى يديه، نامت نزوته فجأة كما قامت، ربما خجِل من نفسه، منها ومني، لكنني ربَتُّ على احتياجه دون أن أرمش، دون أن أخدش المسافة بيننا، وهو تركها لي، إن أردت أن أفرد الشراع أو أترك المركب، وأنا ما زلت أتحسس اللطمة القديمة وموضع قدمي بوجه لا تعبير فيه.

فكَّتها وحدها، قدمها تثاقلت قليلاً ثم أبطأت كثيراً، تطبخ وتكوي وترسل إلينا، لكنها لم تعد تلعب الشطرنج.

راحت تلعبه في بيتها، زائر جديد، أكل عاماً وحده، غامض لا يعرف أحد متى يأتي ولا من هو، لم تعد تنام على بطنها معظم اليوم كما كانت تفعل وتحمي البيت بمؤخرتها من احتمال سقوط السقف، ولا تنام على ظهرها البقية وأنا أتساءل إن كانت قد وضعت مرآة في السقف، لم تعد توارب الستائر، فيما بعد قالت بانكسار معروف إن ضابطاً رمى عليها رقمه حين كانت في مقهى مع صاحبتها وإنها ارتعبت وزمَّت خيوط حذائها، وأنه عاد ورمى ثانيةً بعين متوعِّدة وإنها ابتسمت وإنها خافت وإنها استسلمت بعدما رأت بابنا مغلقاً بقفلين، وأن راياتنا لم تعلق فوق البوابة ولا رفرفت، وبعدما حلَّت بركة الألفة محل سهام الرغبة، وبعدما أصبحت اللعبة ماسخة لا طعم لها كأنك تشاهد مباراة معادة تعرف نتيجتها مسبقاً.

مسحت ذقنها بيدها وببطء قالت إنها منعت أذاه عنا.. كان يريد أن يبطش بأي شيء يقترب مني ولو كانت ملابسي.

وإنها كانت حازمة معه مرة واحدة فقط طيلة علاقتهما حين أفهمته أننا البقية الباقية من رائحة أهلها.

كانت تقترب ما استطاعت، صنعت من أصابعها ضوءاً للروح، اختفى من وجهها الشبق وحلت محله براءة مختبئة، كحلت عينيها بدلاً من الأصباغ، ملأت البيت بدفء الحب لكن مغامرتها القديمة ظلت توقظني من النوم، والرغبة المدفونة في عينَيْ أبي أطلقت صفارة النهاية.

أعرف أنني أكذب على روحي وأنني أذوب قبل أن أصل البيت، وأنني أعد الساعات حتى أعود، لكن حين أعود يبدو الحب باهتاً مستحياً والرغبة نائمة.

طفلها صار أقرب إلى السطح، يظهر عارياً، وثدياها الخالدان استدعيا صورة أمي، تطبخ جيداً فأعرف أنها غرزت في غرامي.

قبل أن تمضي قالت: تريد أن تنتقم مني، خذني وانتقم مني.

تريد أن ترد لي الصفعة كما تتخيلها، لو أخذتني لصفعتني، ولو تركتني ستصفع روحك، أنا أحبك.

تعذبت قبل أن يأتي الزائر الجديد، وتعذبت بعد أن أتى، وأبي التقطته واحدة يحكي لها حكاية قبل النوم وينام عندها، وأنا وحدي لا أعرف هل أخطأت أم أخطأت.

معظم الضباط لا يريدون سوى الفلوس والنسوان، ينبشون الجيوب والأجساد، يرمون جثثهم، يحصدون الطاعة ورائحة الأفخاذ، هكذا قالت، لا ظهر لي في الدنيا، تتمنى كل النساء الحب، وفي لحظة ما يفضلن الأمان على الحب، وحين يحط الخوف ينسين كل شيء حتى أعمارهن وأعياد ميلادهن.

صحيح، لا أمان مع الضباط، مع شخص يرمي ورقة برقم هاتفه، لكنه الجحيم إن خالفته أو تملَّصت منه، قد تجد نفسك واقعاً فيما لا تتوقعه، لن تجد وظيفة ولا كسرة خبز إلا إذا انشقَّت السماء وضحكت منك وأرسلت إليك ضابطاً آخر.

غاب الضابط فجأة كما حضر، حصل على وظيفة دبلوماسية في بلد آخر.

لم يجد الوقت ليودِّعني، عرفت بالصدفة من أحد معارفه الذي كان يقلب شفتيه الكبيرتين ليأخذ مقعده.

لا تلمني، لُم نفسك، تركتك عندما كنت طائشة، وعدت إليك أزحف، وضعت كل أسرار الأنثى في قفَّتك، أتمنى رضاك وحنانك، هل تعرف معنى أن تقول امرأة لرجل إنني أحبك، وهي لا تنتظر طوال عمرها سوى كلمة أحبَّكِ مرة واحدة في اليوم؟

- لا تقل ليت، لا تستعملها، أسوأ سجن هو سجن الأسف.

نظفت حجرات قلبي إلا منك، استوطنتني، وعليك أن تكشط قبلات الآخرين عن بشرتي.

تلعب معك اللعبة إياها ثانية وثالثة، يقع سهمك دوماً في جراب الحب، ويطيش مرة في خانة الجنس.

وحدها في بيتها، وحدي معظم الوقت في بيتي حين يغيب أبي لقسط الحنان الذي عثر عليه، عرفت منه أنها هي من دبَّرت له العطاء والغطاء، أراها أحياناً، تراني أحياناً، إن تصادفنا نبتسم كجيران طيبين أكلنا ولعبنا معاً ووضعت يدها على بطني وكادت تنزلق ذات يوم.

تخفض عينيها مرات حين تراني، كأنها عذراء تتخيلني حبيباً، وترفع عينيها مرة كأنها تريد أن تصنع مني عشيقاً.

لا أريدها عشيقة عابرة، ولا هي تريد، لفحة الحب تكاد تحرق عينيها، لا تعرف أحياناً أهو حب أم غضب، أم أنها الحسرة لأنها خسرت ركناً تعرف جيداً أنها كانت ستغمض فيه عينيها وتؤرجح رجليها.

لا أستطيع أن أترك بيت أبي حتى لو تزوجت، والبيت كبير وبه كل لوعتي وناري.

تحبها تهرب منك، تحبك فتصدها بقسوة، ثم تضعان الصد في كفتين متقابلتين، تتركان كفتي الميزان تتأرجحان وحدهما وأنتما تتفرجان بقسوة تستحقانها.

شركها أنك محطتها الأخيرة، أملها اليتيم، وشركك أنها شرك تحبه، تقدم قدماً وتسحب أخرى، ولو دخلت فلن تستطيع أن تتملَّص من عسل طري لزج.

لا تضحك على روحك، لم تحب غيرها، كأن أحداً سحب الباب في الحلم القديم وأغلقه، لو كانت خرجت من داخلك لوقعت في حب واحدة أخرى، تبحث عن واحدة تشبهها في كل من تعرف، النسخة الأصلية دائماً واحدة، لا أحد يشبه أحداً، وأنت لم تعد ترى سواها كأنها وباء استوطنك لا يميتك ولا يتركك تحيا، ولا تهجره أنت أيضاً لتحيا.

لا أحد يستطيع أن يعذبنا كما نعذب أنفسنا.

أمامك من الوقت الكثير لتجهز حياتك لواحدة أخرى، وهي جاهزة، القلب في القلب، البيت في البيت، والزيت في الزيت.

خذها عشيقة، لكن منذ متى تتحول الحبيبة إلى عشيقة، يتحول الحلم إلى شيء عادي.

ستغرق فيها لو فتحت لها الباب، وأنت غريق بدونها وأنت توصد الأبواب.

لن تستطيع أن تحقق حلمك القديم وتقشر لها ثيابها عن جسدها، فات أوانه، ثم إنها ستخلع لك ملابسك وملابسها معاً.

تغيرت، كل شيء فيها تغير، وبقي سحرها هو هو بثياب أكثر، ووجه أقل عبثاً وأكثر أمومة.

خذها، أنت تحتاج إلى أم وحبيبة في امرأة واحدة.

لا أحد محصناً البتة تجاه مفاتن امرأة، ما بالك إن كان يذوب فيها، يجب ألا تخشى العواقب.

وهي لا تكف عن المحاولة بخجل كبير، ذاب عبثها ومناغشتها وحلت محله عيون تريد أن تربت وتحضن.

تطبخ لك وتترك الأواني أمام الباب.. لتفتح الباب، وأنت تعيدها لها بخجل شاكراً، آملاً ألا تتعب نفسها فيما بعد.

تأكل في الخارج وتخلص لمطعمك، وتتذكر عبارة فيلليني: إن الإخلاص لمطعم أشد من الإخلاص لامرأة.

خذني حتى لا يأخذني ضابط آخر، الدبابير تطلق زنابيرها خلفي وتنبش الفضاء عني طوال الوقت.

تستوقفك بلطف شديد ورجاء للحظة، تدخل وحين تعود تقدم لك منشفة، تقول لك والرغبة تنطُّ من شفتيها: هذه منشفتي، حين تستحمُّ لفَّ جسدك بها.

- منشفتي التي أحبها، لم تمسس جسداً غيري.

لا تكف عن مباغتتي، يهدي الرجال للنساء في بلادي سواراً دلالة على العشق وتهدي المرأة رابطة عنق أو تطبخ لجارها، أما هي فلا تكف عن الابتكار، تهديك منشفتها التي لفَّت بها جسدها لتلفَّ بها جسدك.

أكبر إغراء للمرأة حين يستحمُّ رجلها معها أو حين يلفُّ أحدهما جسده بفوطة الآخر.

وحين تشعر أنك لا تريد لا تكفُّ عن المحاولة، وحين تغيب شهراً عنها ثم لا تجدك واقفاً ببابها تمنحها منشفتك وأنت تغرِّد بالشبق في عينيها تصعد إلى أعلى بنايتها وتحاول الانتحار.

وحين تلعب بك الميلودراما أو الصدفة تكون قد خرجت إلى باحة بيتك ترقص فرحاً أو ألماً، لترى الدراما متجسِّدة في أعلى صورها، هي تريد الانتحار فتجدك في وجهها كآخر وجه يمكن أن تراه، أو بالأحرى تتمنى أن تراه، فتنزلق قدمها إلى أول السطح، لكنها تتعلق بالأمل وإن عابثتك بأن تحاول أن تزحزح قدميها قليلاً ثم تقفز لترمي نفسها في قلب حضنك.

تلقفها وتسقطان، تطمئن عليها، تأكلك بعينيها، بكل ما أوتيت، وأنت تنام معها على الأرض في أجمل لقطة من فيلم ربما حلُم فيلليني به.

تحملها بين يديك كعروس في لحظة لم تتمنَّ أكثر ولا أجمل منها، تقول لك بصوت مبحوح من فرط النشوة: الآن يمكن أن أموت سعيدة.

تفتح بابها وتدخل لتنظف لها جروحها، تكشف عنها ما لم ينكشف، تكاد في لحظة تداويها بشفتيك، ثم لا تريد أن تتورط رغم أنك طيب

ومتورِّط، تغير لها ثيابها كلها، ربع قميص بدل ربع فستان، تربط ما يستحق الربط وتفك ما يجب فكه، وهي استرخت، تركت لك نفسها، أرخت رأسها على ذراعها وأغمضت عينيها، مستجيبة لأكثر الدوافع بدائية، مستسلمة كأنها تريد أن تدفن الحلم تحت جفنيها، ثم وأنت تتحرك خارجاً بعد أن اطمأننت تماماً عليها، تقول لك: هل نسيت شيئاً؟

تنام جنبها، تنام على ذراعك بعد أن أعطتك ظهرها، لا تعطي المرأة ظهرها لرجل إلا إذا اطمأنت تماماً، و أرادات أن يضع ساقاً فوقها لتغمض جفنيها هانئة، تفيق من غفوتك كل فترة لتتأكد أن كل شيء في مكانه، وأن حرارتها مضبوطة على مقاس حلمها، اختلطت عطورها برائحة جروحها، وحين تتحرك في الصباح ناحية الباب تعيد عليك جملتها: هل نسيت شيئاً؟

تحاول أن ترد بسرعة حتى لا يفلت الخيط من يدك، لكنها لا تزيد ورطتك بعد أن أيقنت بتورط أصابعك، كل أصابعك، تودعك إلى الباب بكل الآهات والتأوهات، وحين تسلم عليها تقدم لك مفتاح شقتها فتضعه سعيداً في جيبك.

-٧-

عشت مع واحد لا أعرفه.

أصعب شيء أن تكتشف امرأة في نهاية حياتها أنها كانت لعبة، وأن حياتها قد تم تمزيقها بسكاكين الخديعة وأنها عاشت عمرها كله كذبة، هذا إذاً ما يسمونه: الكذبة الكبرى.

تقبل المرأة الكذب في الغرام، في عبارات الغزل، تصدقها، تترجمها داخلها إلى يقين، تحولها في ثانية واحدة إلى حقيقة مختومة بالشمع الأحمر، تزين بها الإيشارب الذي يطوق رقبتها، تطلقها أنى شاءت في الفضاء أمام عينيها وتضعها تحت وسادتها قبل النوم، وإن اجتاحها برد ما تشدها من تحتها وتجعلها غطاءً تتدفأ فيها وتغيظ بها الأيام.

لو أن رجلاً خدعته امرأة سيجد حوله مئات التبريرات التي تفك عنه الكرب وتسند له ظهره، من كيد النساء، من كيد الأيام، سيرى حوله العشرات الذين ينقلونه بسرعة من الكذبة الكبرى إلى كذبة أقل ضلالاً، سيجد نساءً يربتن عليه، يمسحن عنه، بل يكحتن عن جلده جلد الحقيرة الذي التصق به، يمحين الماضي، سيبدأ حياة جديدة بتواريخ جديدة وأولاد جدد، سيلتصق بهم ويلتصقون به، وتبدو الحياة القديمة محض سراب إلا من حكايات متقطعة بالكاد تطرقع كحبات أبو فروة وقت الشتاء.

قد تُخدع مرة أو مرات في حياتك، تستفيق وتكمل، أما حين تكتشف بغتة في نهاية اللعبة أنك كنت ممسحة طول العمر، ما الذي يتبقى لك سوى الحسرة، والانتقام إن استطعت أو الانتحار إن كنت تملك شجاعة قطع رأسك.

عرفت متأخراً، متأخراً جداً، بالصدفة، حتى لو علمت بتدبير من أحد نكايةً فيه أو انتقاماً منه، عرفت والسلام، الوشاة وأصحاب المطامع حاضرون بالجملة، لم أكتشف ذلك إلا في نهاية الرحلة، نهاية عمره المحتومة على يدي.

خدعني حدسي، لم أنتبه رغم ظهور العلامات، رجل ينام معي كأنه ينتقم من آخرين، كأنه ينام معهم هم ويفرغ شحنته داخلي، كنت أنا من تلعب دور الدوبلير دون دراية مني، ألعب نطَّة الأرنب نيابة عن المساجين، أنام القرفصاء ليأخذني بغلٍّ بدلاً منهم أو كأنهم تجسدوا فيَّ، يرى وجوههم محل وجهي، الرجل الذي لا ينظر إلى وجه امرأته لحظة العناق لا يعوَّل عليه، كأنه لا يعرف الفرق بين جسد وآخر، حين ينام معي مرة كالبشر كنت أشعر أن هناك واحدة تتمدَّد بيني وبينه، كذبت على روحي، كنت أقول إنني السبب لأنني لا أحبه، بل أمقته وأقضيها أياماً.

لم يعرف مرة واحدة معنى الحنان، الطغاة في الأفلام وفي الكتب يقبِّلون زوجاتهم ويلعبون مع أطفالهم، لم تقترف يده لمسة ولو على سبيل الخطأ، كأنه يؤدي مهمة قومية، قد تتزوَّج امرأة غصباً أو على غير إرادتها لكنها حين تجد رجلاً دافئاً أو يداً مفرودة بالحنان تفكُّ قيودها بلين عن جسدها ولو لم تفكه عن قلبها.

كان قافزاً من العيار الثقيل كأنه مصارع يهبط بكل جرمه على مصارع آخر ليقضي عليه بلمس الأكتاف، لم يكُ يقبل اللعبة حتى لو فاز في النهاية، هو دائماً يفوز على فريق أبكم، يعتقد أنه ربح الجولة لينام سعيداً، اللعبة تحتمل صعوداً وهبوطاً ومماحكةً ودلالاً، لكنه يريد صعوداً فقط مرة واحدة والقضاء على منافسه دون لمس الأكتاف ولا ما تحتها.

لم يتخيَّل أبداً أنها لعبة، يتعامل مع الجنس كأنه معركة، ومع جسدي كساحة حرب لا تسمح بالكر والفر معاً، لا يتصور نفسه يحبو من نهد إلى نهد، أو ينزلق بتؤدة على بطني، أو يبحث بشغف عن حارس مكمن الأسرار،

يريدها حاسمة إلا من آهات الهزيمة، يريدها آهات قاطعة لا تأوهات متقطعة، التأوهات المجروحة باللذة هي كل ما يبقي في سلة الصياد. يريدها مدوِّية، آهة للقتل.

لا يعرف أنها توضع في جراب الفارس حتى تمتلئ البئر فتفيض الآهة متقطعة ناعمة، عالية أو مترنحة، لا يعرف أن للآهات مقاماً آخر من مقام السيكا، أداء آخر، هنالك فرق بين آهة الفتك وآهة الغرام.

يحكي بشواربه عن فيروز، ولم يتذكر مرة: إن شئت تقتلني مرةً قتلتني مرتين.

الرجال من هذا النوع لا يخطر ببالهم بتاتاً أن المرأة تحصي تأوُّهاتِها ليلة بعد ليلة وتعد صرخاتها واحدة واحدة في قلب الموقعة، تفتش بمكر أبيض عن الرمح، تبعثه حياً من مكمنه لتستعيد صرخة تحييها وربما تقتلها عشقاً، صرخات تهيم فيها وتهيم بها، وتعطي المتعة للعبة وإلا ما كانت لعبة.

عرفت أنه يعذب الناس وعرفت أنه كل أسبوع كان يعرف واحدة جديدة وربما كل يوم.

بوغتُّ حين عرفت، لم تعد فوقي سماء ولا تحتي أرض، رحت أرى الرجل الذي يضاجع زوجته كأنه يقتل، كأنه يعذب أحداً ويتلذَّذ بذلك، يضرب في كل الاتجاهات في جسدي، ويمر بعنف من كل الثقوب، هذا البغل كان يستمني في الليلة التي يموت فيها واحد من معذبيه، لم أكن أعرف ولم أشأ يوماً أن أسأله عن فعلته وإن تساءلت، المجانين وحدهم لا تستطيع أن تتوقَّع أفعالهم أو ردودها، كان يضرب نفسه بقوَّة كأنه يضرب أحداً آخر، في بعض الليالي لم يكن يستريح بين جولة وأخرى على الإطلاق، كنت أرى المنظر كأنني في كابوس، الآن أغمض عيني وأقدر أن روحين طلعتا يومها في يده وربما ثلاثة.

رحت أتخيل صراخ الذين وقعوا عند قدميه، لم أعد أعرف النوم، راح

الصراخ يدوِّي في البيت طوال الليل، ينتقل من غرفة إلى غرفة يضرب الحيطان، يرتطم بالأثاث ثم يستقر في أذني بالطنين.

الضباط يؤمنون أن على رؤوسهم ريشة، شعب الله المختار، يقع من يقع في أتون السلطة وزهوها وتنبت له أظافر من أظافرها، بعضهم تنبت له شوارب أطول منها، يقع في خيلائها إلى الحد الذي يتخيل نفسه سلطة فوق السلطة ذاتها بل يفوقها، لم ينتصر زوجي عليَّ فقط، بل انتصر عليها نفسها وبلمس الأكتاف، لم يشبع جوفه من دماء الذين اغتالهم أحياء في القبو، لم يكفه القبو، الجلاد الخاص يحتاج سجناً خاصاً على مقاس طموحه وجموحه، ساديته وغروره، اختار له قبواً في إحدى البنايات بمباركة مالكها ورعبه، اختار الأبواب والمنافذ والتهوية والباب السري للخروج، رمى فيها العابرين وفق هواه، يحبس من يحبس ويفرج عمن يفرج دون حسيب ولا رقيب.

عقلي يكاد يطير، ضابط يقيم وحده سجناً حكاية تصلح في فيلم، في خيال فنان مجنون، لكنها حدثت في الواقع وباختراع رجلي الذي ينام في سريره أمامي، كان الطعم جاهزاً ولم لو يكن جاهزاً لاخترعه، والمرشحون لأدوار البطولة كل أفراد الشعب، كل من لا يثبت ولاءه بالتأييد حتى الموت، والعناوين كثيرة فضفاضة والتهم جاهزة: الزنادقة، الشراذم، إضعاف الشعور القومي، الوهن من نفسية الأمة، اللحى التي نبتت في الذقون، الذين نبتت لهم لحية ولو كانت في المؤخرة، منذ مجزرة حماة صارت الهاجس الأول للدولة كلها، اختفت من الوجوه كأن الوجوه عقمت، ولم تظهر إلا على وجوه الممثلين في المسلسلات والأفلام، ولم ينبت ذقن لواحد إلا إذا كان قد استطال سراً في قبره.

لم تكن اللحى وحدها بل كل الوجوه، أتذكر الآن ما رأيته في صحيفة منسوباً إلى فنان مشهور زار مدينتا وقال قولة ثم وأدها في حينها: ما كل هذا الذل على وجوه الناس! تم منعه سراً من العودة، ولا بد أنهم دبروا محاولة لاغتياله حيث يقيم.

سجن قطاع خاص، فكرة شيطانية ربما خطرت برأس راسبوتين، لم يترك نتفة من الموضوع لأحد ولا للمخبرين الذين يعملون معه، تولاه بنفسه وأطبق عليه كأنه سر حربي، راح يمر في الشوارع وحده، بعين العسس المستهين بكل شيء يجمع البطاقات، يشحن الأجساد في سيارات الدولة ثم يخزنها في الشقة تحسباً للطوارئ، عند كل قضية في دائرته يكون جاهزاً، يقدم المتهمين قبل أن يتم التعرف على تفاصيل القضية، والمتهمون اعترفوا إلى أن يظهر الفاعل الحقيقي، وزملاؤه يسألون المشتبه بهم، والمشتبه بهم يردون: صور السيد الرئيس في كل غرفة حتى غرفة النوم نلقي عليها تحايا الصباح والمساء، يا سيدي أنا لا أصلي أساساً، وآخر يقول لم أدخل مسجداً في حياتي، والذي اشتبه عليه الأمر يصرخ ويقول: أنا مسيحي، والردود جاهزة: متواطئ معهم، يخبئهم عنده ويقبض المقابل، هؤلاء هم من أفسدوا الدولة وأقلقوا راحة الناس، والناس على رؤوسنا.

ما من قضية قال فيها الحق، أو فك خيوطها، دماغه مشغول بمشروعه، وزملاؤه ضائعون في خيوط لا توصل إلى شيء، لكن الصدفة تأتي للجبناء وللجلادين أيضاً، والحظ لا يقف في جانب المظلومين والفقراء إلا لماماً، صادفه بعض الحظ بمجهود آخرين أو وشاية غيرهم، مرة تصيب وعشرة تخيب، والتي تنجح تغطي ما تم الإخفاق فيه.

ضباط المباحث يضعون له مخبرين سريين حراسة على سجنه الخصوصي، وعدوهم من وجهة نظرهم واحد، وكل مجاملة بثمنها، كل من لا يستطيعون التخلص منه لسلامة موقفه أو لقرابته بصاحب حظوة يضعه لهم في سجنه الخاص، من يدخل قبو أمن الدولة مفقود، ومن يدخل سجن زوجي مفقود، وأجساد الناس وأرواحهم علكة تمضغها نفوس مريضة لا ترى غير ما يزين أكتافها.

أنت لا تعرف الضباط، إنهم يأكلون بعضهم في صراعهم على سلطة عمياء، وهي لا تضعهم في مواجهة بعضهم إلا وقت الخطر، نعم السلطة

ليست طيبة فيما بينها إلا حين يقترب الأذى من حرمها، لحظتها تكون الأم الرؤوم، تغطي على أعضائها، تمنحهم الحصانة مهما كانت الخطيئة، تخبئهم تحت جناحها كلما كانت الغلطة فادحة حتى لا يحترق ثوبها، ولو كان الناس يجِلُّون بعضهم بعضاً مثل إجلالها لأفرادها لانصلح الكون، السلطة غاشمة تتقاذف البشر بين أرجلها ككرة القدم تماماً، تحرز بهم أهدافها، ثم يمزقون الكرة فيما بعد أو يضعونها في خزانة بقضبان.

وهي أيضاً عاقلة وكريمة إلى أقصى حد، تسلم رقاب الجميع حتى تنجو برقبتها.

لكنك لا يمكن أن تحرق دكان العطار وبابه مقفل عليكما دون أن تمسَّك النار، اكتشفوا أن الذين دخلوا قبوه غيلة وانتقلوا منه إلى القبو الكبير صاروا أبطالاً على غير إرادة منهم، ولا من الذين رموهم داخل الدكان وأغلقوا الأبواب، لم يثبت عليهم شيء وخرجوا، لكنهم تحملوا جدران القبو وجرعة الصرخات التي يمكن أن تشقَّ قلوب الملائكة ورائحة اللحم المحروق فنبتت لديهم قصصية خرافية عن قوتهم وبطولتهم، وسكاكين في مواجهة سلطة غاشمة.

تصنع السلطة ببطشها وغبائها أبطالاً، ثم تستدير تعدُّ العدة لمقاومتهم.

في السجن مكتب للباشا وحراس، وقفص للمحجوزين، باشا يصرخ فيهم مرات ويربت عليهم مرة، من قلب المحنة تنبت النكتة، في هذا السجن المخصوص كان كريماً، يسمح لأهالي المقبوض عليهم أن يحضروا لهم الطعام والشراب، والمضحك حد البكاء أنه كان يحضر لهم أحياناً الطعام والشراب حين تنقص المؤونة، يسمنهم لوقت حاجة ويقدموا له الامتنان حين يفرج عنهم.

الغرض مرض، لم تكن الحكاية حكاية متهمين، كان الباشا الفحل يقبض على كل هؤلاء من أجل أن يروي رغبته في النساء، كل الأشكال

والأحجام، امرأة قريبة لواحد منهم، أخته وطبعاً زوجته، بالذات زوجته، يرميهم في سجنه الأربعة نجوم حتى تستوي البضاعة التي يريدها، كان يفاصل النسوان بنفسه على أنفسهن أو على قريباتهن، من تقدم نفسها يخرج أخوها أو زوجها، وزوجها يعلم، يعلم ويغض الطرف بألم المذبوح ونفَس مكتوم، بمحنة الأخرس عن اصطياد زوجته على أم عينه.

شقة تصبح سجناً خاصاً وأخرى مرتعاً للغرام، عادل بما يكفي للتوفيق بين عمله ومزاجه، يقسم وقته بينهما، وعادل بما يكفي لإنقاذ حياة شخص، زوجته في مقابل خروجه.

اسمه الحركي لطيف: الكعب العالي.

لم يترك واحدة أعجبته في الدائرة إلا وأدخلها دائرته، والنوم مع الكعب العالي شرف، ومن يختارها العالي يا بختها.

يروي شبقه مرة بدم الرجال ومرة بماء النساء، بالعسل المسفوح.

حين تزوجني كان يريد أن يركب الطبقة، الآن توسع نشاطه وساح في كل الطبقات.

في لحظة ضعف تعصف بكل امرأة في موضعي، رحت أتحسَّس جسدي، أنظر إلى نفسي في المرآة، خلعت ثيابي كاملة أمامها، لكنني رأيتني جميلة وقلت بصوت عالٍ أنا جميلة، استحليت روحي وجسدي، قرَّرت أن أخرجه نهائياً من رأسي، رميته كما رميته من قبل، هذه المرة دست عليه بقدمي، وتركت ظلي يرقص على راحته في المرآة.

تتمنى المرأة لو تتقيأ روحها حين تعرف في نهاية العمر أنها كانت مطية لا رفيقة، أن تغير جلدها ولو بماء النار، ولو بالنار لتزيل الجلد الوسخ ورائحته.

لم أتحدث عن عمله مع رفيقاتي إلا بالكاد، كنت أستغرب زوجات

الضباط اللواتي يقبلن أزواجهن حين يتم ترقية واحد إلى رئيس مجموعة من خمسة أفراد، أو يوشوشن بعضهن عن قضية تم قتل الناس فيها، لم أكن أدخل إلى مجرى الحديث أبداً، كل زوجات الضباط يعشن بيقين أن أزواجهن ملائكة يكافحون الشياطين.

يخبئ الناس عنك ما قد يؤذيك، بعضهم يخبئ عنك ما قد ينجيك، لا تعرف لماذا، ولو كنت تحبهم وتفرش قلبك لهم، تكتشف أنك الوحيد المخدوع في اللعبة مع أنك الطرف الأساسي فيها، عرفت الآن أن بعضهن كان يعرف من أزواجهن، لكن ولا واحدة فتحت فمها ولا واحدة أشارت من بعيد، كن يتحدثن عن المخدوعة فقط في غيابي.

داعر على أصول الحرفة، يأخذ ما يريد ليترك لك ما لا تريد، قسمة ضيزى، لكن لا أحد فتح فمه.

لم يكن يقربني وقتها، قلت لعلّه سئمني، سئم حلبة المصارعة أو لعل أحداً لا يتم تعذيبه هذه الأيام، أو ربما هبطت عليهم السماء فألغوا التعذيب في القبو والسجون، ولعلَّ كل المتهمين اعترفوا من أول كلمة فوفروا على أنفسهم وعلى جلاديهم عناء التعب.

سنوات لم يكن يقربني إلا في المناسبات الوطنية، وحين كان يقربني مرة على سبيل التعارف كنت أشعر بالواحدات اللواتي ينمن بيننا، يعسكرن بنهودهن ومؤخراتهن، كان تائهاً كأنه يحدِّث امرأة أخرى بها ما ليس بي، فيما بعد رحت أشعل التليفزيون في أثناء الخدمة، أضعه في مقابل نظري حتى ينتهي وأتحسَّس أجسادهن المتسمِّرة بيننا.

وطاشت الحكايات، بعضها في العلن وبعضها تحت الدش، اعتلى راقصة من الدرجة الثانية واستحل نقودها، كان يقاسمها النقوط، يضربها لتعترف بكل فلس، ولأنه لا يفل الحديد إلا الحديد، استعانت بزميل له يريدها، لكنه خرج من الحكاية كالشعرة: هي مصدر وعميل لنا بين الزبائن، ونقودها نتنة مثلها ومغموسة في عرق السكارى.

وقعة الشاطر بألف، الصيد الجديد امرأة فاتنة وشخصية معروفة، زوجة رسمية لزميله، وزوجة بعقد عرفي لزميل آخر، والعشق والتهتك يحتاج الضلع الثالث، دخل في الضلع دون أن يعرف واحتل مكانه، ثلاثة ضباط من ماركة الكعوب العالية في سرير واحدة، واحد يحبها ويأتمنها على أولاده القادمين، وواحد تحبه وتأتمنه على أولادها القادمين، وهو يتفرج على الجميع، يولغ في العسل ويترك الأحلام لهما.

علاقة مزدحمة، لكن البطة أدارتها بحنكة وخبث البغيِّ الشيك، ثلاثة كبار أو من المفترض أن يكونوا كباراً يشربون من إناء واحد لم يستطع واحد منهم أن يتبيَّن طعم المذاق الفاسد، أن البئر مسمومة واللبن حامض، استغفلتهم واحدة وتلهّت بشواربهم. وانكشفت الحكاية، كان لا بد من نقل المغفلين، أما الكعب العالي فخرج منها لأنه كان يراقبها خوفاً من تأثير ألعابها على مسار وحدة الوطن، بالطبع لم تذهب إلى السجن لكنها ذهبت مرة أخرى إلى شقته، الزوج الرسمي على شفا الجنون، والزوج العرفي نفد بجلده بعد أن فقد زوجته الرسمية وزوجي الذي اعتقد أنه فاز بالمكافأة، راح يضرب مؤخرته بدل مؤخرات الآخرين.

لطمته الحكاية، الذئب الفريد لطعته امرأة على قفاه، أخذت لي بعض ثأري دون أن أعلم ودون أن تقصد، وهو يدور في البيت كثور هائج وأحياناً يتحسَّس قفاه.

السلطة تدفن خطاياها على طريقتها، لم يعلم بالموضوع سوى عشرة، وحين تزداد الأسئلة عن الأسباب لا يجد أحد جواباً، الجواب في معدتها، تحفظ أسرار الجميع وتقتل أسرار أعضائها، لم يعرف أحد سبب نقل الرسمي والعرفي، واحتفظوا بالكعب العالي لأنه كان يلعب واللعب مسموح.

لا أريد موته، سأموت لو مات، أريده حياً لأسقيه من كأسه، نصف عمري قضيته مريضة، كلما قتل الغيظ روحي كان جسدي يشاركها بمرضه.

سجن عام يليق بجلادين غلاظ القلوب، قبو في أمن الدولة يليق بجلاد

بلا قلب، أما سجن خاص فهو يليق بديكتاتور صغير، ديكتاتور اختار شعبه على مزاجه، اختارهم بالفرد، يتشاركون في سجنهم، في البراءة والخديعة، بعضهم لم يك مخدوعاً، كان يعرف سبب سجنه، نساؤهن، كلهن زوجة مالك بن نويرة في عينه.

اختار شعباً في السجن ليعيش مع الشعب الآخر في شقة مفروشة، أثثها هو على مقاس انقلابه، لم يؤثِّث غرفة على مزاج ساكنتها، الأثاث للمقيمات، والغرف العابرة للعابرات.

سجن خاص يليق بديكتاتور أو مجنون، أو يليق ببلد على شفا الجنون، والسجينات هناك في الحرملك يُعدن سيرة الحرملك الأولى، لسن أكثر من خِرق تُلقى بعد أن تُستعمل، تُرمى ممزقة على قارعة الطريق.

لم يشبع يوماً، لا من الرجال ولا من النساء، لم يشف غليله، لا يعرف دوراً غيره، رفض وظيفة المحافظ ووسّط كل من يعرفهم ليبقى في موقعه، قالوا إنه مجنون بحب الوطن ولا يحب الأضواء، يعشق رائحة الدم، الوجوه المكلومة، المرعوبة، الأرواح المكسورة، الأنوف النازفة كرامتها، الانسحاق، التذلل، صعقة الكهرباء، المطارق، كماشة نزع الأظافر وكماشة نزع الروح، ثم بعد ذلك اليقين بأنه المنقذ لها من الضلال والزندقة.

وجملة واحدة صارت لبانة في فمه طيلة أيامه الأخيرة قبل الذبح: لا نعذبهم، نحن نعلِّمهم كيف يحبون وطنهم بطريقة رشيدة.

لا يستطيع البعد عن غوايته، لم يستطع أن يقنع نفسه بالتوقف، وأن هناك دائماً خطَ نهايةٍ في آخر السباق، لم يقتنع أن الأرض قد شبعت من الدماء والأجساد، وعليه أن يغسل يديه.

صعب أن تقنع بائع السكاكين أن يبيع الطماطم، سفاح غارق في النوم مع جثث قتلاه وربما يضاجعها.

لم أكن أعرف شيئاً من هذا، لست مخدوعة ولا نادمة على أنني لم

أعرف من قبل، فالذين علموا اثنان فقط: الله وملاك الشمال، ملاك اليمين سمع بعض الحوارات والاستغاثات لكنه أومأ واشترى نفسه بعيداً عن وجع الدماغ.

نحن في بلد لا تستطيع أن تركب الباص من مدينة إلى أخرى إلا بالبطاقة الشخصية، لا يستطيع راكب أن يحل محل آخر أبداً مهما كانت الأسباب حتى ولو سافر الباص كله بمقاعد فارغة، يبدو أنهم يقيمون البروفة الحقيقية لترتيبات يوم القيامة على أرضنا.

لا أتحدث نيابة عن أحد، لو عرفت ما حدث كما حدث لابيضَّ شعري مرة واحدة، ربما سقط وسقط معه وجهي دفعة واحدة.

لا بد من تعذيبه، هذا ذئب ضال، يحتاج قفصاً، نتفرج عليه وهو يموت ببطء شديد، تُنزع روحه قطرة قطرة، من إصبعه الخنصر في ساقه اليسرى ثم من ساقه ، يجب انتزاعها بألم وببطء حتى تصل ركبته، دعوها في ركبته لأيام، وهكذا حتى تصل الحلقوم، يترك على هذا الوضع سنيناً بعدد سنوات عمله، بعدد أيامها وساعاتها وثوانيها.

لكن هذا الوضع يحتاج ضلعاً ثالثاً يوافق أن نربطه في حبل يتدلى من السقف، به عقدة في الأعلى تهبط كل يوم بمقدار، حتى تصل عنقه وتحوطه بعد شهر، ثم تنطبق وحدها ببطء شديد، تأخذ حول رقبته شهراً آخر حتى تخرج روحه، تخرج وتعود، وهكذا، ولا يهم في هذه اللحظة أن نسأل عن الاتجاه الذي صارت إليه رقبته الملتوية.

أنا أخمن أنني رأيت هذا المعالج من قبل، ربما رأيت واحداً يشبهه، ربما أخاه، نفس روح الملامح، هناك روح لكل وجه لا يمكن أن تتغير مهما كبرنا إلا إذا تم تعذيبنا، الذين وقعوا فريسة تبدلت ملامحهم، وربما يكون هو من بدَّل ملامحه، لا لا يمكن، ملامحه تغيرت إلى الأسوأ، حاجباه كأن قرضة مرت عليهما أكلت نصفيهما، وأنفه للداخل، لكن روحه التي تترقرق في عينيه تقول إنه هو.

حتى ولو لم يكن هو، لا بد من طريقة ليكون في صفك، اسأليه مباشرة أو غازليه، لا لا، لا ينبغي أن أستخدم أي أسلوب رفضته، بل يجب أن تستخدميه، زوجك كان يستخدم الوسائل الرخيصة لجلب ضحاياه، وأنت تستخدمين أجمل وسيلة، إغواءه، لا بد من إغوائه.

كأنك الآن على شفا الوقوع في غرام الطبيب وتضحكين على نفسك، كل ما فيه عكس ما في زوجك، يعجبك وتبحثين عن حجة، ولم لا؟ يعجبني، أريد استخدامه لغرض نزيه، فلأفكر أن أكمل إقناعه، كي يؤمن أولاً بقضيتي، أو أعرض عليه ما ينقصه.

أنا لا أريد قتله، وإلا لما أتيت به إلى هنا، كان من الممكن أن أضع مسدسه بيده ليقتل نفسه، أنا أريد أن أتفرج عليه كقرد في قفص، أرخي له فيغني وأزجره فيرقص ويعرض مؤخرته.

لم يفكر يوماً أنه سيجد نفسه مرمياً في البيت، أو من الممكن أن يتخلوا عنه، لم يتحدث مرة عن الموضوع إلا حين خرج زميل له وانتحر، ساعتها قال إن المعاش يتكون من لفظين: ما عاش، ثم صمت.

كان يعد على أصابعه قلوب المعذبين ومؤخرات النساء، لم يحسن النهاية رغم أن جعبته ممتلئة، لم يعرف التوقيت، التوقيت مهم جداً للاعبين بمصائر البشر، إما أن تنفد بجلدك وهيبتك المنتصبة فوق أكوام الجثث التي فرمتها بدم بارد، وإما أن تهوي، الجلاد كالعداء، يجب أن يحسبها بالثانية ويتوقع الانزلاقة قبل حدوثها.

سأتفرس وجوه الناس، أحاول أن أعرف من تم تعذيبهم، بالطبع ليست لهم سمات واضحة، وألسنة الناس تخفي، كل لسان يعرف مصيره، سأحاول أن أستنشق بروحي المعذبة من تم تعذيبهم، أريد أن أنام مع كل واحد جلده زوجي، النوم معه لن يعيد له كرامته، ربما يشعره بالتشفِّي ليرتاح، لكن هل يريح هذا روحي المهترئة؟ لا أريد أن يكون انتقام أحد منه فيَّ، أريد

انتقاماً فيه هو، أنا لم أعد ملكاً له ولسع جلدي لن يلسع جلده، وفضُّ مؤخرتي لن يفضَّ مؤخرته، فلأبحث عن النساء اللواتي غشيهم لأنام مع رجالهن، لكن الثأر المتبادل لن يحل مشكلتي، لن يجعل جسدي سعيداً، ولن يدع روحي ترقص.

سأنام مع كل معارفه من الضباط الذين صادقهم والذين اكتووا بنار وشاياته وسلطته، أعرفهم من عيونهم الضيقة الراغبة، العيون التي تلسع، من لعابهم المتعطِّش حتى لو ابتلعوه انتظاراً لفرصة، لا لا، الضباط لا يستحقون هذه الغنيمة، لا ينبغي أن ألعب لعبتي لصالح أوغاد آخرين.

فلأفعل به كل ما فعله بضحاياه، أقتص للجميع رغم أن الجميع يضعني معه في نفس المرتبة، مرتبة الكلاب المسعورة والدببة الجائعة، لا بد أنهم يحكون عني ما ليس بي.

فلأستدر على نفسي إذاً، أبحث عن قصة حب أعوض بها كل سنواتي، يجب ألا أجعل الأعوام الكئيبة الماضية تأكل أيامي الباقية، علم النفس الذي درسته لم يوفر لي معرفة من يشاركني الفراش، استراحة رأسي على صدر رجل أحبه هو ما سيقتله، نوم كفلي في دفء فخذ رجل آخر يعشقني هو ما سيعذبه، أنا أريد أن تذوق روحه العذاب في الدنيا، لا علاقة لي بالآخرة، أريد أن أرى هزيمته على جلده وانسحاقه في عينيه.

بغير الحب لن أغفر للحياة، لن أستطيع التسامح مع الغد بدونه، بدونه لن أقدر على التعامل مع نفسي ومع البشر، كانت لي قصة حب لم تكد تكبر وتستقر في دمي حتى اختفى صاحبها.

غيرت كل شيء فيَّ، خلعت الإيشارب الذي فرضه عليَّ رغم أن الطبقة التي نعيش فيها تتباهى النساء بشعورهن المنطلقة وأجسادهن المحبوسة، سأغير كل شيء: أقص شعري، أبدل هيئتي، سألبس بنطالاً بدل التايورات، سأنقص وزني، سأحقن شفاهي حتى يكون فيها جديد يمصه واحد جديد، لن أرتدي مشداً من بعد، صدري لا يحتاج إليه، واقف ثابت مترجرج وحده

حين يشاء، وسألبس بنطالاً أبيض بدون كيلوت، لي أن أفعل ما أشاء لأمحو أي شيء يذكر جسدي به، لن أترك عليه أية رائحة منه، لكن ذلك يحتاج إلى حبيب جديد، حبيب حقيقي.

هذا الرجل يجب ألا يحطم ما بيني وبيني، ولا ما بيني وبين العالم.

أمامي هذا المعالج، يعجبني، فيه شيء يمسني لا أعرف كنهه، لكني أريده لأمر آخر، أريده أن يساعدني في تلقين هذا المأفون درسه الأول والأخير، لا أريد أن تتداخل الخيوط، ما فعله بي الجلاد زوجي جعلني لا أثق أنني أستطيع أن أفعل شيئاً أو صالحة لأي شيء.

أريد أن أجد طريقاً له كي يغتصبني بحب أمام هذا الوغد - هو وغد في عيني وجلاد في عيون الآخرين - يغتصبني حقيقة لا تمثيلاً، أستعمل أسلحتي النسائية لأستميله، أنا خسرت كل أسلحتي النسائية كأنني لم أولد بها، أنوثتي مثل قطعة خشبية نخر فيها سوس بلا قلب، لم أستعملها يوماً ما، الأعضاء التي لا تستعمل تبلى والأحاسيس التي لا تتألق تتبخر في الهواء، فرصتي اليتيمة أن أستعيدها وأطير بها، سأمنحه مؤخرتي التي يسترق النظر إليها برقة ولوعة، منذ أحسست بذلك أدركت أن أشيائي بخير، ليصعد صوتي ليشق صدره، لا لا، أريده أن يأخذني كاملة من حيث يجب أن يأخذني، آهة من القلب سوف تنيخ المأفون بدلاً من آهة لا أشعر بها ولو كانت حقيقية أيضاً، أريده أن يسمع صوت لذتي ولو خفيضاً لتتردَّد في صدره طوال الوقت.

عشت مع واحد لم أعرفه.

تتباهى النساء بأنهن يعرفن كل شيء عن أزواجهن، ومتى تم قطع ذيولهم، أما أنا فذيله يلعب في كل أيامي من بدايتها حتى الآن.

الضابط الذكي يجب أن ينام في سريره مهما تعدَّدت عشيقاته، لا يجب أن يخرج على المعاش وهو يلعب في بيت عشيقته.

لعب حتى في سريري وعلى فراشي، يبدو أن شقة المتعة كانت مكتظة كاملة العدد، فاصطحب طريدته إلى شرشفي، الحارس يموت منه رعباً، لكن امرأة الحارس التي تموت منه رعباً أيضاً غلبتها غريزة العيش والملح، رفعت شعار: النساء للنساء، أخبرتني، كان ذلك في اليوم الذي خرج فيه للمعاش.

كان راتبه غارقاً في الدم فأصبح جسدي ملوثاً بماء النساء، بأنين أعضائهن، ونقود العاهرات.

يختفي في الحمام، يستمني طوال الوقت، يبدو أن الموتى كثيرون هذه الأيام، يبدو أنه يعد قتلاه، لم يعد يصلب طوله، وحين عرف أنه لم يعد من الممكن أن يعذب أحداً فيما بعد، راح يجري في البيت كالمجنون، ولما أدرك أن ديكه لم يعد يؤذن في الفراش ولا في الحمَّام قبل الفجر أو بعده، وأنه فقد عرفه وارتخى منقاره، أخذ يسبُّ المؤذن حين يرتفع صوته في مواقيت الصلاة، وبقفزة واحدة قبل أن تلتوي رقبته بصلاة واحدة جرى إلى الجامع وأسكت المؤذن وهو في وسط الأذان.

-٨-

هل تعرف شعور ماو، عندما تهتف باسمه ثلاثمائة مليون حنجرة في توقيت واحد في قلب بكين العاصمة؟ ترجُّها كأن الزلزال الحقيقي قد وقع، زلزال يحيي الروح، الأصح يخلقها من جديد، لا يدمر شيئاً، فقط يرعب الأوباش في مراقدهم سواء على ظهر البسيطة أو تحتها، ثلاثمائة مليون ذابوا جميعاً في شخص واحد، لا أحد فكر في نفسه في هذه اللحظة، صاروا نفساً واحدة، حنجرة واحدة. سيقول واحد بصوت غير مسموع إن بعض المباني خرَّت سراعاً كأنه تم تفخيخها، وانقطعت الكهرباء في كل الأحياء المتاخمة، وما تراه الآن عياناً بياناً هي أنوار الزعيم، ولدت نساء حبالى ما حملنه في التو واللحظة وهن يهتفن، وخرج مواليد من أرحامهن معظمهم إناث يصرخن: ماو ماو، وتوقفت الكرة أعلى رؤوس اللاعبين في مباراة لكرة القدم وتسمرت أخرى في الهواء قبل أن تدخل السلة من رمية ثلاثية.

قل ما تشاء، تخيل ما أحببت ومسموح لك أن تخرف، سيصدقك الجميع، كذبك هو الصدق الحقيقي في هذه اللحظة الفريدة، لكن ما لا يمكن أن تراه أن عضلات الاستبداد تتورَّم في هذه اللحظة الفاتنة عند الرفيق ماو، تنتفخ ولا تتمزَّق، وأنا العظمة في روحه تتمدد حتى تغطي قارة آسيا بكاملها وتعبرها مسرعة إلى القارات المجاورة، بل إن الحقيقة التي لا يعرفها سوى الجلادين دائماً وعلماء النفس أحياناً أنه في هذه اللحظة يولد ماو آخر اسمه الإله ماو، ربما لا يعرفه هو وربما حلم به في أحد الكوابيس ورآه فجأة أمامه.

لو أن إلهاً أراد صناعة ديكتاتور لما فعل أكثر من هذا، وما كان طموحه هو وشياطينه أكبر من ذلك.

في هذه اللحظة تحديداً يفقس الديكتاتور جلادين، يدخل في عقولهم، يبدل أمخاخهم بأشياء أخرى، يحقنها، فيقدسونه ويسبحونه، يتحدثون باسمه ويدافعون عنه بكل الوسائل التي تخيلها ولم يتخيلها، ويصيرون كائنات أخرى على مقاس مقام جلالته.

أنت واحد من هؤلاء، أنتم من تصنعون الجلاد، الرعاع هم مطيته ووقوده، لا يفلحون في شيء آخر بعد صناعته سوى عبادته دائماً ورجمه أحياناً، ثم تطلبون منه أن يكون بشراً عادياً! يأكل ما تأكلون ويضاجع ما تضاجعون! والحمقى وحدهم هم الذين يحلمون بما لا يحظون به.

تقولون عني إنني جلاد، تتفوه بها أيها المعالج من بين أسنانك وتجز عليها، أراها تسكن عينيك بالشرر، تستولي عليك من غير أن تنطق بها، بخسَّة تقولها زوجتي التي منحتها شرف اسمي منذ البداية، كان يمكن أن آخذها قسراً ولو كانت في حضن أي رجل ثم أرميها في أي وقت.

أنتما وغيركما لا تعرفون ما فعلته من أجلكم، لكنني لا أعير أمثالكم أدنى اهتمام، أنا فعلت ما فعلت من أجل الملايين الأخرى، من أجل أن تسعد كل عين وتنام هانئة، عيني هي عين من بات يحرس في سبيل الله، ضحيت بسعادتي في سبيل الوطن وأبنائه، حاولت أن أحميكم من أنفسكم ومن الآخرين، حاوطناكم كآبائكم، لم يستطع واحد أن يعين خفيراً في مجمع أو مؤذناً في جامع دون موافقتنا، لنطمئن على ولائه حتى في طبقة صوته.

أنا مثل أبيك، لا تظن أنني أستعطفك أو أدعوك للرفق بي، بعيد عن شواربك مع أنك بدون شوارب، نتفتها لك لتصير أوسم ولم تجرؤ بعدها أن تعيد تربيتها مرة أخرى، ألا يعنفك أبوك، ألا يضربك وربما يحبسك! أنت بليد لا تقرأ الصحف ولا تشاهد التليفزيون وإلا لكنت عرفت أن العقيد القذافي الذي تبتَّل في تعبير الزنادقة قال للولد الذي قبض عليه: يا بني أنا مثل أبيك.

أبي أيضاً كان يفعل بي ذلك، الموظف البسيط في عائلة من الجنوب،

يعتد أهلوها بجيوبهم المنتفخة، بفلوسهم، يعيشون في الطرف البعيد عند تخوم حدود دولة أخرى لا يعرفون لأيهما يتبعون، يطلقون النار بعضهم على بعض لأتفه الأسباب، على كل طير عابر يرفرف فوقهم، لا يعرفون من يغير عليهم ولا من أية وجهة، في لحظات الفوز يعتقدون أنهم ملكوا الدنيا وما عليها. كنا نسمع عن الضباط، نخاف أن نتخيلهم حتى لا يأتوا في أحلامنا، لكنهم جاؤوا، جاء الضابط الذي لم نره، كانت الحكايات التي تحوم حوله أنه بأربع أعين تبخ ناراً في الليل وتخيف المجانين.

تعكر الهواء وصارت أسماء الموقوفين والمختفين أكثر من أسماء الحاضرين، كنا نرى ظله على الوجوه الخائفة في النهار، المرعوبة عند قدوم الليل، رحنا ننام من المغرب ونتخيله.

خفنا حتى شبعنا من الخوف، والصفعات التي نالها كبراء العائلات على وجوههم رجت قلوب الجمع لكنها أماتت قلبي، وتكهربت المنطقة، كان لا بد من عاقل أو خائف لنشتري السلطة، لا يجب أن نظل إماءً نلعب بالفلوس وتلعب بنا الحكومة، والحكومة في المدن البعيدة والطرق الوعرة لا تتفضل علينا بشرف القرب منها، لكن يبدو أنها اكتشفت فجأة أننا نتبعها فقررت الهبوط بالباراشوت مرة واحدة، واحد من خدمها تبحث له عن دائرة ينجح فيها، لكنها أرسلت الضباط أولاً لترخي الرقاب قبل أن تفتش الجيوب والحناجر.

السلطة التي لها أظافر طويلة تحتاج حناجر أطول، السلطة الغشيمة تحتاج زبائن أكثر، انضممنا بالحب والنقود لطائفة الحناجر، طاف عضو البرلمان المزعوم بوعوده، وظهر نظام التوطين، كل منطقة يجب أن تنتج ضباطها القريبين من أهلها، ضباط يعرفون بطنها وظهرها، من لحمها ودمها ليمنعوا الدم قبل أن يصل العاصمة، كان نصيبنا خمسة ضباط، واحد منهم من عائلتنا ليزيل عنها ماكياج الرعب الذي لطخ كل الوجوه.

كان على عائلتنا أن تشتري لها ظهراً، السلطة تُشتَرى بالسلطة، وأبي

الذي تحسس خده تمنى أن أكون ضابطاً ليمسح بي كل رائحة البارود الفاسد في الجو، رائحة الامتهان التي لحقت به أو كان يشعر بها حتى في ملابسه، كان يرى نفسه صغيراً في المرآة مع أنه كان طويلاً عريضاً في الحقيقة، وزاد، أرخى كرامته للجميع من أجل حلمه، تنازل عنها داخل العائلة فقط، غير مسموح له بأبعد من ذلك، وما أوجعني وأبان له الطريق أن البنت التي اخترتها بعد قبولي في الكلية رفضتني: لن آخذ هذا الضابط المصنوع من ورق البنكنوت والرشاوى، أريد ضابطاً حقيقياً.

ابتلعنا الحكاية كما ابتلعنا إخوتها، وفي اليوم الذي سأذهب فيه إلى الكلية أخذني جانباً، أعطاني المصاريف وقال بالحرف: لا تعد إلى هنا إلا وأنت كبير وقوي، فرصتك وفرصتنا الوحيدة لنكون في الحياة على يديك، سنعد على أيدينا الأيام يوماً بيوم وساعة بساعة.

كان عليَّ أن أعوض الخوف والخذلان، أدوسهما، أزيلهما بماء النار، لم أكن أحتاج إلى كلمات أبي، كنت وحدي جاهزاً للانطلاق لكن في اتجاه آخر، أن أكون أنا القوي بالسلطة لا عليها، لم أكن أحلم بالوظيفة، كنت مصمماً على ركوبها والصعود بها، في أسابيع الاسترخاء قبل التخرج كان الطلبة يرسمون أنفسهم على سبورة المدرَّج بزي الضابط الجديد، بنجمة أو دبورة على أكتافهم، ظللت أرقبهم وأنتظر اللحظة، وحين وقفت أمامها رسمت ما يوضع فوق الكتف فقط بعرض السبورة كلها، رسمت الدبورة وكتبت تحتها: هذه فقط يا رب، ولك أن تطلب منا أي خدمة بعدها.

النجمة للحالمين بزي الشرطة، يتبخترون بها أمام الناس وأمام النساء، والدبورة لأمثالي ممن سيقتلون أنفسهم في العمل، ومن يريدون أن يسفحوا كل شيء، ما حرموا منه، ويرصفون مستقبلهم بدبابير حقيقية.

وجاءتني الفرصة وحدها، هاجم اثنان من الشراذم قسماً للشرطة، نالا جزاءهما وقتلا في الحال، تم إبلاغ الوزير الذي لا بد أنه أبلغ واقفاً السيد الرئيس، فجأة تبين أن أحد الشراذم فرَّ هارباً، وأن القتيل الثاني كان

أحد المارة، نال الشهادة سرقة، ووقع الجميع في أزمة ستودي بالرؤوس جميعها، لكنني دخلت عليهم بالمجرم الثاني قتيلاً، أمسكته حياً، لم أنتظر أن يدلي بشهادته، قتلته ثم ليعترف فيما بعد، كنت أقتل فيه كل ما بقي من ضعف قديم وأقدم أوراق اعتمادي لأمن الدولة، أنقذت شرف الوزارة والوزير والوطن، يجب ألا يظل الوطن عرضة لترهات المحاكم والمحامين والسفلة أصحاب حقوق الإنسان، لو تركنا آذاننا لكلامهم لما وُجِد لهم وطن يعيشون فيه من الأساس، إنني أحتقر هؤلاء، متحفز لهم بقلب حجر. الطبق النظيف هو ما يجب أن تأكل فيه ولو كان مغسولاً بالدم.

بعدها قال زميل متفلسف على الملأ بعد أن عرف الحكاية وشاهد جثة القتيل الرعديد: كنت أعتقد أن الديناصور فكرة خيالية.

لكنه لم يدرك أن السلطة غشيمة، وأن دوري أن أجعلها عاقلة.

أنتم جاحدون يا مطيع، تنعتوننا بوقاحة بكل الأوصاف الحقيرة، لم نأت بشيء من عندنا يا خائب، الفقهاء الذين نسير وراءهم ونتبرَّك جميعاً ببركاتهم هم من أفتوا بشجاعة ومعرفة أكيدة بقتل ثلثي الأمة ليعيش الثلث الباقي في سلام وأمان، صدقني إن الوزير كان يعرف أن أحد مساعديه زئر نساء يشرب المخدرات مع الممثلات، بل كان يكتب المسلسلات نفسها وفي هذا بالطبع نفع للشعب، فالمسلسل الذي يكتبه لا يحتاج إلى مراجعة، يعلي من شأن ما نؤمن به من قيم وممثلات أيضاً، كان اسمه على لائحة الخارجين على المعاش، لكن الوزير الماكر كان يعرف قدره وحاجته إليه، العضلات كثيرة والأدمغة قليلة، وحين أتى له بالفتوى السابقة من قلب أمهات الكتب تربَّع في موقعه ومدَّ رجليه، تقلب عليه أربعة وزراء، ولولا أن ملاك الموت اختاره ليضبط الأمور في الجنة لظل في موقعه إلى الأبد.

من أنت يا مطيع، حشرة على جدار كبير بنيناه نحن، تأخذ من تعبنا لراحتك، تعرف النساء وتسرح معهن على حِسّنا، بمعرفتنا وبإرادتنا، تأكل

وتشرب وتنام وتحلم، ولو جاءك كابوس فأنت المخطئ، نحن لا نرسل الكوابيس إلا إلى المخطئين.

لقد أفنيت عمري كله في خدمة هذا الوطن، نذرت كل وقتي لأبنائه، أسعدت خمسة وعشرين مليوناً، ضحيت براحتي وراحة بيتي من أجلهم.

راعيت حق الله في أبناء الله، هل كل من عذب مجرماً صار جلاداً!!! المجرم الحقيقي هو الذي يترك واحداً يعبث في مؤخرة الوطن أو حتى أنفه.

أنت تعتقد أنني الآن ضعيف لمجرد أن رقبتي ملوية، أنت واهم، أنا كنت أرى كل شيء بقفاي، أنا أقوى منك، أنا تركتك على قيد الحياة، ألا يكفيك هذا! كان لا بد أن أرضى عنك لتعيش، إن رضيت عنك خرجت، وإن غضبت عليك سينسونك إلى يوم الدين.

صدقني لا أمزح معك، من أنت حتى أمزح معك! حشرة مثلك ظل في القبو طويلاً، أحضره ضابط ونسيه، الضباط انتقلوا إلى أماكن أخرى وتبدل غيرهم على المكان، لم يعد أحد يتذكر سبب دخوله ولا علة وجوده، صار جزءاً من المكان، لا أحد يسأل عنه، لا أحد كان يعرف مكانه، وفي يوم حضر ضابط جديد طلب تغيير جهاز التكييف، وجدوا ملفه عالقاً بين الجهاز والحائط، محشوراً كخشانة حتى لا يصدر الجهاز صوتاً مزعجاً، كما ترى أنتم خشانة لأجهزة أفضل منكم لنا.

إنني أستغرب من عقلك المريض وعقول أمثالك، هل تظن أننا نتسلى بكم أو نفعل ذلك لأننا مرضى كما تتوهمون؟ نحن لا نفعل شيئاً من تلقاء أنفسنا، كل شيء يأتي إلينا من فوق، إنها الأوامر، لماذا تقولون أن الأوامر تأتي فقط من السماء، وحين نفعلها نحن تتهموننا بأبشع التهم، نحن نتعذب بأرواحنا أحياناً أمام بعض القرارات وإن كانت بالطبع قليلة، نريد أن نفتك بمن يفكر مجرد فكرة في قض مضاجع الوطن وتعذيبه حتى يسلم،

وأنت تعذبت خفيفاً يا مطيع، لم تُفقَأ لك عين ولا قُطِعَت ذراعك، أنت الآن أفضل مني، أنا لقمة سائغة بين يديك كما ترى، تظن أنك تستطيع الانتقام مني وقتلي أو تعذيبي، أظن أن هذا يجب أن يرضيك وأن يهدهد روحك المتعبة، ويريحها من التفكير في تعذيبي والانتقام مني بأية صورة، وأن يرخي على قلبك السكينة، سكينتي سقطت من يدي لكن لا تنسَ شيئاً، أنني لست وحدي، خلفي ألف سكين، ترسانة عمياء لها أنياب وأظافر طويلة، سكاكيننا في كل مكان، اقنع بما في يدك من سكينة وأرخ سكِّينك جانباً.

قلت لك يوم لقيتك: سأفرغك من جوفك، سأخرج مطاعاً منك وأحل محله لتصير نظيفاً من جرائمك، ثم يحل محله واحد على الشاكلة التي أريدها، على طريقتنا في الخلق، العجينة التي يجب أن تكون عليها لتحظى بمكان في جنتنا، كان لا بد من تحويرك وتحويلك إلى مطيع على مقاسنا، متعاطفاً معنا، مؤمناً حقاً بنا، نحن الدين والوطن والأسرة، ولعلك سعيد الآن، تشعر أنك تحب مطيعاً وأنك هو، أليس كذلك؟

أنا حاولت أن أغيرك لتصير أفضل، وأنت الآن تتغير فعلاً إلى الأفضل، أنت كنت تخرب الوطن وأنا كنت أحمي الوطن، وصرنا الآن في خندق واحد.

نحن نحكي كل شيء، مفردة الكذب تم شطبها من اللغة، المصارحة والمكاشفة وسيلتنا ونتأكد من ذلك كل يوم ونبدأ بأنفسنا. ضابط كبير سأل ضابطاً صغيراً في إحدى جولاته التفتيشية: بمَ حلمت بالأمس، رد الضابط الصغير دون تفكير: كنت أحلم أن كل النساء في بنايتنا يقفن صفاً واحداً بسعادة في انتظار أن تضاجعهن، لكنك في النهاية اخترت أمي!

فكرتنا بسيطة يا مطيع، أنت تعرف أن من اخترع قماش الجينز الذي تلبسه وتتبختر به كان هدفه أن يخترع قماشاً يصلح في كل الأحوال ولكل المناسبات مهما اتسخ، ونحن مثله تماماً أردنا تحويلكم جميعاً إلى سراويل جينز متشابهة صالحة لكل الأغراض ونظيفة أيضاً، ولعلك تعرف بحكم

تعليمك أن ذلك يحقق المساواة بين الجميع، ويؤكد أننا كدولة نتوخى العدل الكامل بين أبناء الأمة.

أنا مندهش! أنتم جاحدون، هناك من يختلف مع زوجته أو أولاده على صحن فاصوليا فيربطهم في عواميد السرير، وأنت تشعر بأنك ضحية لمجرد أنك شرفتني شهراً يتيماً في ضيافتنا في القبو.

هل كنت تريدني أن أجعل القبو صالة رياضية مثلاً!! رغم أنك كنت تلبس الشورت عندنا وتمارس رياضات أيضاً، صحيح أنها عنيفة بعض الشيء لكنها صقلتك، إنني أتعجب منك ومن أمثالك، هذه أمن الدولة، ستفقد هيبتها إذا لم تشْعِر كل من يدخلها ومن لا يدخلها بالرعب! هناك شيء اسمه الردع العام، وهو بالبلدي ضرب المربوط ليخاف السائب.

بضاعتنا مضمونة حتى في التأديب، نحن نستورد كل شيء من الصين وكوريا الشمالية وروسيا الحبيبة، العظيم فينا أننا نتقن بضاعتهم أكثر منهم، انظر إلى سيارة اللادا - بالمناسبة أنت مثلها تماماً – ليست سهلة القيادة لكنها أليفة بنت أصول، تعيش ولا تشتكي، فقط تحتاج قادة أقوياء لتطويعها، ونحن الأقوياء، أقوى ممن أنتجها، هم يصنعونها ونحن نستخدمها على أروع صورة، فيعودوا ليستخدمونا لتحسين صورتها في العالم، ليست السيارة فقط، بل كنا في مقدمة من استطاعوا استخدام آلات التأديب، ونحن الأوائل على العالم في تأديب المساجين، وبمرتبة الشرف أيضاً.

نحن لم نحاسبك على الحمام الموجود على سطح بيتك! أنت تعرف بالطبع أن تربية الحمام ممنوعة في مدينتنا، دعك من الشرذمة التي تقول إننا منعنا تربيته لأنه قد ينقل رسالة من واحد حقير إلى حقير آخر مثلك، نحن نسمع دبة النملة، نحب الحمام رمز السلام، لكن هناك عدواً يتربص بنا يستخدمه في العدوان علينا، يبعث برسائله إلى أعوانه، وتستخدمه بنات العدو لإغواء شبابنا الطاهر.

أنتم تؤذون الحمام بتربيته، وتضطروننا إلى فحص الحمام، حمامةً حمامةً حتى تعترف!

أنت الآن تقف ضدي بصلف لست أهلاً له، ولا تقدر على تحمل نتائجه، حتى هذا المجتمع الأخرق الذي ضحيت من أجله لا يعجبه ما فعلته ويقف ضدي، كان يمكن بسهولة أن أدعهم يرمونك في قاعدة التواليت وأشد عليك السيفون.

وأنت يا زوجتي العزيزة، تكرهينني الآن، رغم أن مؤخرتك ترقص، صدقيني إنني كنت أريد أن أفض كل النساء لكي يحملن بمثلي، حتى تصير الدولة كلها آمنة من الفئران.

قولي لهؤلاء إنني لم أكن أرى أولادي بالشهر ولا أعرف من منهم في أية سنة دراسية ولا عرفت يوماً مقاسات أحذيتهم أو ملابسهم وتفرغت لمقاسات وأحذية أبناء الوطن، الشيء الوحيد الذي لم أنسَ تعليمهم إياه هو قيمة الحزب الخالد علناً وعظمة الرفيق ماو سراً.

أنا ذبت في ماو، رغم أنني أخفيت ذلك، عقيدة حزبنا صارمة مثل زوجة لا تقبل أن يكون زوجها عشيقاً لأية واحدة وإلا ركلته إلى الشارع، كنت أحلم به وأنا مستيقظ، أراه وهم يدفعون إليه البنات كي يسلينه ويلاعبنه، الفرق الوحيد بيني وبينه أنه كان ينام على فراش من النساء، بينما كنت أتعب وأجهد نفسي لأحصل عليهن، ربما تميزت عنه أنا بأنني كنت أختار، وهو كان يأخذ ما يدفعونه إليه.

أنا لست جباناً لأقبل أصدقائي في الشارع وأعذب أصدقاء آخرين مثلك في القبو، لا أستطيع أن أكون بشوشاً، لا أقدر، غير مسموح، نحن في معركة والمؤامرة صنعت في الأساس لنا.

نحن في حرب يومية، الحروب الأخرى مهما كانت بشعة تأخذ مدة وتنتهي، أما نحن ففي حرب كل دقيقة لا تنتهي ولن تنتهي إلا بإبادتكم جميعاً ما دمتم أنتم ضد الوطن.

لذلك لم يكن يعنيني جسدك ولا أردت أن أعذبك، أنا فقط أردت اقتناص روحك وعقلك، انظر إلى نفسك الآن، أنت صرت مطيعاً بدلاً من هذا المشوه المدعو مطاعاً، والذي كان يعشق عربيداً اسمه فيلليني يريد أن يعيد صناعة العالم على مزاجه، أنت أصبحت الآن تعرف قيمة ماو وليس فيلليني الأخرق.

حتى فيلليني هذا مجرم أيضاً، يتخيل نفسه زعيماً يجب أن يسبق اسمه اسم رئيس إيطاليا في صفحة إيطاليا من موسوعة جينيس، وصوره في الصفحات الأولى تسبق صورة الرئيس، بل واتته الجرأة والحماقة معاً ليؤلف أفلاماً من رأسه بلا ورق مكتوب ولا مخطوط تراجعه السلطات، نحن درسنا حالته لنعرف حالتك، يتخيل نفسه حاكماً بأمر السينما يفعل بالمشاهدين ما يشاء، لو كان هذا الفيلليني عندنا لسحلناه، ولك أن تسأل المخرجين في بلادنا، إنهم وطنيون ولا يستطيع واحد منهم أن يطرح مجرد فكرة من رأسه أو يتقدم لتنفيذها دون موافقتنا.

أنت لم تتخيل لحظة أنني أعرفه، أو أننا لا نستخدم أفضل الوسائل لتعليم الضباط، لقد رأيت فيلمه الذي يصف فيه الأولاد الذين يتحرشون بالنساء وبكل شيء، ولم أنس تعبيره: العجول الكبيرة التي لم تفطم بعد، ثم صار فطامها على الدم، لو وقع في يدي لعلمته كيف يصنع فيلماً، ولعلمته كيف تسفَح الدماء.

أنتم تتخيلون ترهات لا وجود لها في الواقع، سمعت البعض يحكون بثقة أن رؤساءنا في كلية الشرطة يعلموننا قاموساً للشتائم، أو لعلهم يدهنون ألسنتنا بدهان زفر، لا يا مطيع، نحن نتعلم من المجرمين ثم نعيد الكرَّة إليهم حتى ولو صرنا أسوأ منهم، العيب ليس فينا وإنما فيكم، أنتم تزرعون العفن في دواخلنا، نحن استنشقناه منكم، أنتم السبب، لكل هيئة نشيد أو أغنية، وقاموس الشتائم هو النشيد الوطني للضباط، ثم لا تنس يا مطيعَ أننا لا نتقصَّد كرامة أحد، لكننا نحصل في الغالب على ما نريده

من أي واحد بعد أن تسقط كرامته، هذا هو القانون غير المكتوب الذي يأتي بنتيجة سريعة، ونعتذر بشجاعة لمن أهنَّاهم، بل نقربهم منا بشدة ونجعلهم عباداً في خدمة الوطن، هؤلاء الذين تطلقون عليهم باشمئزاز غريب: اسم العملاء أو المرشدين.

أنت تريدني أن أعترف وأنا مريض تحت ظرف خاص، وهذا يشكك في اعترافي ويبطله، ويشكك بقواك العقلية، بل في الموضوع برمته، كن آدمياً بما يليق بمعالج نفسي، أدِّ وظيفتك بشرف كي أحترم من شكلته على يديَّ، لا تجعلني أفقد الثقة بصنيعي، لا تفقد احترامي.

إدانتي صعبة بل مستحيلة، أنا من يصدر الأوامر، ولا دم على يديَّ، ولا على روحي النظيفة، تقول إنني عذبتك وأنا أقول أدبتك، نعم فليكن هذا ما حدث، لو جاء دم على يدي يوماً فليكن دم ماو نفسه، حتى أستطيع أن أمشي على الصراط المستقيم بجريمة تساوي التوتر.

أنت صرت أكثر وسامة من ذي قبل، انظر إلى أنفك الفريد، الساق القاسية التي ضربتك فعلت ذلك كي ينضبط وجهك على الوقار المطلوب منك بعد خروجك، وصوتك أصبح خفيضاً لا يستطيع أحد أن يتهمك بغير الأدب، عذراً فقط لما تم بحاجبيك، كان ضرورياً لاسمك الجديد، ملامحك أصبحت وقورة، تضحك كأنك حزين، إنها لعبة صدقني، ونحن نقدس اللعب أكثر من الحقيقة.

ليس أمامك غيري، لا أب ولا جارة، يجب أن تحبني وتودني لتعيش أنت، لا تستطيع أن تعيش على الخوف والكره فقط، وإلا تمزقت من الداخل وعاد إليك مطاع مرة أخرى في المرآة.

يا مطيع، الدولة عميقة، خذ عندك هذه الحكاية، وزير التموين الوقح اعترض على وزيرنا في أحد الاجتماعات، كانت الصين العظيمة قد خصصت لنا منحة للتنمية، وطلبها وزيرنا لتنمية السجون، لكن وزير التموين المأفون قال: كل المبالغ تذهب إلى الداخلية ولا شيء لإطعام الناس!

كأننا لا نخفف المشاكل! غضب وزيرنا فاق الحدود وغمز لي، ظللت أراقب هذا الديوث حتى وجدته يتسلل إلى امرأة في منطقة المزة، وأتيت به للوزير في قلب مكتبه، صحيح أنني لم أدعه يرتدي ملابسه لكنني سترته بالملاءة التي كان يتنعم عليها، لكن الوزير سامحه الله أتى بزوجته كي تتفرج عليه ثم لتصحبه إلى البيت بملاءته.

يا مطيع نحن نرأف بالناس في بلادنا، نفكر نيابةً عنهم ونعمل حساباً لكل تفصيلة، لا نترك أحداً نهباً للخوف أو الشك أو الشيطان، لا نترك أحداً لهواجسه، نحن لا نضع تماثيل وصور القائد الخالد من أجل ميزة له، فالخالد لا يحتاج صفات أخرى، ومع ذلك فهو الصنديد، ورب السيف والقلم والزراعة والصناعة والرجل والمرأة والأسرة، ورب الحرب والسلم والدجاج، أنت لا شك تعرف حكاية الرجل الذي ذهب إلى طبيب العيون يشتكي لأنه يرى كل الصور والتماثيل متشابهة! ورغم ذلك لم نعتقله أو نسيء إليه، نحن نقدس المساواة بين أبناء الوطن، ومنحنا هذا الرجل لقب المواطن المثالي، بل قمنا بتوزيع صورته على مراكز تنظيم الأسرة بعيون واضحة لتنتج النساء أشباهاً له.

من يغير من؟ أنا المسجون الآن ولست أنت، لكنك لست سجاني، سجني هو عنتي، في نومي بقضيب ميت ورقبة ملوية، لا تعنيني أنت ولا زوجتي، أريده هو، أن ينتفض لأنتفض، يقوم قومته، رجولتي أصبحت مطروحة في المزاد، لا أريد أن أموت عنيناً لتتبولوا فوق جثتي، أريد أن أذهب لأبي قوياً بنفس الهيئة التي تمناني عليها، أموت نعم، أنتحر لا، الانتحار للجبناء وأنا لست جباناً.

أنا لا أعرف شيئاً سوى عملي، الدفاع عن كل نملة في الوطن، ولو بالتأديب الذي تسمونه أنتم تعذيباً، لا شغل لي غيره، منذ أول دبورة على كتفي غاصت فيه قدمي وروحي، غصت فيه بكلِّي، ماذا سأفعل لو تخليت عنه؟ ماذا سيفعل الضباط إذا كان الجميع طيبين؟ هل يبقون بلا

عمل! لا أعرف شيئاً غيره ولا أريد، وأعي أمراً واحداً: يجب تأديب الجميع لينام الجميع سعداء، صدقني لو كنتم مكاننا لذبحتمونا.

وعلى أية حال، لقد أنصفنا السيد الرئيس، حاولوا استغلال سماحته في العيد الوطني للحزب الخالد، حيث تكون الأجواء مهيأة للتبسط وانتهاز الفرصة لمطالبة السيد الرئيس بكل ممنوع، وحين طلب منه أحدهم - والسيد الرئيس يبتسم لحظتها - أن يتم الإفراج عن المعتقلين، امتقع وجه سيادته وكادت المقاعد أن تطير، رد رداً أفحم الجميع: ماذا سيفعل الضباط إذاً لو أطلقنا سراح الجميع؟

-٩-

لا أعرف أين أنا، ما الذي أتى بي إلى هنا، لا أعرف كم من الوقت مضى وأنا أعب زجاجات العرق؟ أكاد أنتهي، هناك واحدة ما زالت تلمع أمام عينيَّ، تتراقص تحت سيل الضوء المنهمر من كل ناحية، يكاد يُعمِي بصري وربما من فرط الشراب أظنه هكذا، صوت موسيقى صاخبة، موسيقى نينوروتا، أعرفها جيداً، أعرفه أكثر من نفسي، صادفه فيلليني على محطة للحافلات، خمن أنه سوف يركب معه، كان وحيداً يدق بقدميه على الأرض ويلعب بأصابعه في الهواء، صعد فيلليني وركب بجانبه، ومن يومها وهو لا يفارقه، صنع له كل موسيقى أفلامه كأنه كان يصنعها لي.

أين أنا؟ كل ما أحس به الآن أنني في غرفة واطئة، تكاد تكون تحت الأرض، تشبه القبو تماماً، لكنها نظيفة وحيطانها لامعة وإن كنت أراها مغبشة، لا توجد بها روائح سوى رائحة الموت، رائحة الحنوط الذي يرشونه على الموتى الفقراء، رمل تحت قدمي وأنا حافي القدمين بلا حذاء ولا نعل، لا صوت في المكان كأنه قبر، أنادي وما من أحد يرد، أنادي بعزم ما بي، أصرخ لكن صرختي لا تتجاوز حنجرتي، صوتي صار طبقة واحدة فعلاً كما قال لي البروفيسور الذي صادفته في بولندا، لا يرتفع ولا ينخفض، اعتُقل تحت نبرة واحدة وأصبح أسيراً لها، أبحث عن الباب ولا باب، أربعة حيطان ولا منفذ، أخيراً يصطدم بيدي بعد عتاب طويل، يكاد يقول لي أنا موجود لكنك لا تراني، لكنه موصد من الخارج، كأنه جزء من الحيطان، أنادي ولا مجيب، ها هو صوت قادم من بعيد: اهدأ يا مطاع، اهدأ يا ولدي. إنه صوت أبي.

- أين أنت يا أبي.

- أنا بالخارج يا مطاع.

- افتح لي يا أبي.

لا أستطيع يا ولدي، أنا أريد أن أدخل لك لكنني لا أستطيع، لا يوجد باب، والحوائط قطعة واحدة مصمتة.

- والعمل يا أبي.

- اهدأ، حاول أن تنام وتحلم، ربما تجد سبيلاً للخروج في حلمك، حين تراه اخرج منه فوراً وأغلق الحلم خلفك.

أرى مطارقَ تلوح فوق رأسي، لا أستطيع أن أمد يدي لأتفاداها، لا أعرف هل أصرخ الآن في أحد ليمنعها عني؟ لكن رأسي لا تتأوه ولساني في مكانه، لا أسمع صراخاً، هناك ظلال لزجاجة أخرى من العرق مفتوحة، لا بد أنني فتحتها قبل أن أبدأ في الشراب حتى تكون جاهزة بين وعيي وهذياني، حتى أنام للصباح أو للمساء، وزجاجة عرق واحدة كافية لطرح فيل على الأرض، أنا لا أعرف الوقت بالضبط، لكن من المؤكد أنني لست في القبو وهذا أجمل شيء، لا يمكن أن تكون هناك موسيقى في القبو سوى موسيقى الأنين، أسمع صوت قهقهة لسكير، ما الذي يجعل السكارى يطاردونني في الليلة التي أقرر فيها أن أشرب.

يبدو أنني أشرب لا لأنسى، وإنما لأتذكر، لا أعرف بالضبط ما الذي يجب أن أتذكره، في كل مرة أقول إنني يجب أن أشرب زجاجة واحدة لأتذكر ما نسيته، لكن حين أدخل لا أخرج ولا أعرف المواقيت.

ألم أكن مدعواً لعيد ميلاد أحد الأصدقاء؟ لا أتذكر جيداً، ربما كان بالأمس وربما يكون غداً، كل ما أتذكره أنه في بيت جبري، بيت قديم تم تحويله إلى مطعم ومقهى تذهب إليه الطبقة العليا، كل ما أتذكره الآن جيداً في فص بعيد من دماغي أنني صادفت فيه امرأة لا أتذكر منها شيئاً ولا من حكايتها، لكن حين تلوح مؤخرة زوجة الضابط أمامي أتخيل أنها لها، مع أنه ليست هناك مؤخرتان متشابهتان.

من الذي يحكي الآن، مطاع أم مطيع؟ لا أدري، يجب أن أعرف من معي الآن لأدعوه للشراب، لو كان مطاعاً فربما ينسى نفسه بعد زجاجة ويحكي لي الحقيقة ولماذا هجرني؟ لم أفعل له ما يجعله يقاطعني ويغيب عني، ولو كان مطيعاً فسأدعوه أيضاً، صار صاحبي كأنه يسكن في.

لكنني لست سكران، نعم أنا متيقِّظ، نظري يكاد يثقب الحائط المقابل، ويفتح كوة كبيرة فيه، المشكلة أنني لا أعرف بالضبط مكاني ولا زماني، المهم أن الضابط ليس هنا وقفاي ما زال في موضعه، وهناك زجاجة عرق أخرى سأُدخل فيها رسالتي كي يعرف الناس حكايتي بعد أن أموت من السكر لكنني لا أتذكر الحكاية ذاتها بالكامل، ربما أنا الذي داخل الزجاجة، أنا أرى ملامح وجه فيها، ملامح واحد يشبه مطاعاً وأحيانا يشبه مطيعاً، أراها تطفو كأنها ستذهب بي بعيداً ولو إلى أي شاطئ، المهم شاطئ.

ومن الذي يضحك الآن، لا بد أنه الشخص الموجود داخل الزجاجة، والذي يشبهني بالضبط، ضحكته مكتومة لا يوجد بها رنين البهجة.

من المؤكد أنني لا أهذي وإلا لما تذكَّرت شخصين، ولكن أين أنا؟ لا بد أن أعرف، هل هي محطة الباص أم بيت جارتي أم بيت جبري؟

- أنا أنت يا مطيع.

- لكنني لست أنا.

- أنا الشيطان يا مطيع.

تعال واشرب معي يا رجل، لماذا تأخرت على غير عادتك، وماذا حدث في عيد الميلاد؟ هل كنت هناك؟

لا أعرف يا مطيع، هل جئت في الوقت الخطأ أم لا؟ هل كان يجب أن آتي إليك وأنت مستيقظ بكامل حواسك حتى تتذكر كل كلمة سأقولها لك، خفت عليك أن تتخيلني شيطاناً، أم أنني جئت في الوقت المناسب كي لا تتذكرني جيداً، وتعتقد أنك كنت تخرف أو وقعت في كابوس أو

حلم، لقد ظللت نصف ساعة على الباب أفكر في أحد الحلين، ووجدت رأفة بك أن أدخل إليك في هذا الوقت.

.. أنت لا تجيء إلا في الوقت الخطأ دائماً، حين احتجتك ذهبت إلى غيري ووقفت ضدي.

الوقت الخطأ أفضل لي ولك، يناسب شهوتي ويوافق حالك، أنت دخلت من الأساس في النفق الخطأ دون إرادة منك ولا ذنب.

.. لا حاجة لي بك الآن، ما حدث حدث، والقبر المزخرف لا يفيد الميت.

اسمعني جيداً، أنا مشغول وليس عندي وقت للمزاح، جئت من أجلك، أنت لن تعيش مرتين، وأنا سأعيش أبد الدهر، عليك أن تتخلَّص من كوابيسك، من الجلاد، لا تقتله، قتله سوف يربحه هو، لكنه سيترك لك ألماً مضاعفاً، لن تنجو بفعلتك وسيصير هو شهيداً برأس كبيرة تحتاج مقداراً أكبر من الجبس، ستُزيد عدد التماثيل واحداً، والشوارع والمدارس أصبحت مكتظة، ألا ترى الطريق بين حمص ودمشق، يخرجون عليك من الجبلين على الجانبين بغتة كآلهة الجحيم، أنت تحتاج إلى المستقبل لا إلى الماضي، أعرف أنك لن تستطيع أن تخطو خطوة واحدة إلى الأمام إلا بعد أن تقتص لروحك قبل بدنك، لكنك يجب أن تنتهي من هذه المسألة بسرعة حتى لا تدور في فلكها طوال العمر، هم بدؤوا الفيلم لكنك أنت من يجب أن يضع النهاية.

.. أية مسألة! ما حدث لي كشط ملامحي، محا كل الأيام الماضية ويتدحرج كحجر من جهنم أمام ساقيَّ أتعثر فيه كلما مشيت للأمام.

يجب ألا تدعها تأكلك، أنت نسيت كل حياتك وانعقد تفكيرك فيها فقط، المطرقة التي هوت على رأسك كانت ظالمة وحقيرة، مطرقة جلاد لا يعرف الرحمة، الآلة تعمل بحقد صاحبها، لو كانت جماداً فقط لجعلتك تنسى ما حدث لك وتتذكر ما عداه.

تخلَّص من كل ما عانيته ولو بسحله، تعذيبه هو الحل الوحيد، كلما قطعت جزءاً منه انطفأ جرح فيك وانغلقت بوابات صبت الجحيم عليك، أعرف أنك لا تستطيع أن تتوقف عن التفكير في الأمر، القنبلة ليست على حزامك، هي داخلك، أنت كلك قنبلة، وأعرف أن ما حدث لك لا يفعله شيطان.

.. ما حدث معي لا يمكن أن يكون إلا من فعلة شيطان ابن عاهرة.

- لا تخطئ في حضرتي، الشيطان لا يمكن أن ينزلق إلى هذا المنحدر الرديء، لا يمكن أن يسوِّل لواحد تعذيب آخر، ستقول لي: إن الشيطان ملاك والملائكة يعذبون، لا بأس، يفعلها هو، لكنه يأنف أن ينيب أحداً مكانه، للشيطان عهد وميثاق، هو سيد قد يقض مضجعك بما شاء، لكن أنفته وشموخه ومقامه العالي تمنعنه أن يوكل أحداً بجريمة كهذي بدلاً منه، هذه كبائر وخطايا وليست مجرد جرائم.

هو لا يريد وكلاء، هذه ذنوب لا يقدر عليها، تمنعه مكانته وهيبته من اقترافها، يمنعه احترامه لقدره من مجرد التفكير فيها، المعارك والتعذيب أنتم شياطينها أيها البشر.

.. أنتم تعذبوننا بنا، ثم تخرجون من الموضوع كشعرة من عجين وترقصون على جثث الجميع.

- غير صحيح، الشيطان قد يعذبك بالحب بالمال، بالمعصية، بل قد يعذبك بالمتعة، لا يقدم لك عملاً سيئاً في الدنيا إلا لو اغتصبت واحدة أو كنت جلاداً، لكنه لا يزين لك هذا الفعل الشنيع، الشياطين تقف في صف من تم تعذيبه، تساعده على الصمود والانتقام، لتؤكد أنها شياطين للبُهجة لا للحزن، للعدل لا للظلم.

أنا أخبئ وجهي عن نفسي إن دللت أحداً على شيء سيئ، الشيطان يخجل ولا يرقص كما تتصورون.

.. أسد يقنع طائراً أن ماء البحر أزرق، لا ينقصك إلا أن تقول لي إنكم عرفتم خطاياكم، اعتزلتم مهنتكم وتجلسون الآن على مقاهي المعاش.

- نحن تربينا على النزاهة، خذ عندك هذه الحكاية: شيطان صغير كان يتعلم أصول اللعبة، دفعته مراهقته ونزقه - من خلف ظهر والده - أن يجعل واحداً يعذب آخر، فما كان من أبيه إلا أن منعه من نزول الأرض لثلاثمائة سنة شيطانية، رماه من سادس سماء ليهيم على وجهه في الفضاء ليل نهار.

لا نستطيع أن نجلس على مقهى أو نواجه بعضنا أو كبيرنا بماضٍ مخجل.

.. هههههه، أنت تسخر مني كأنني طفل صغير.

- يا مطيع لا تجعلني أرفع صوتي، الحيطان عندكم لها آذان، كنتَ قد بدأت تنسى الخوف مع الوقت، لكنه رجع لك منذ أن وقع الجلاد في يدك، عادت لك ذكرياتك وقعدت على السرير، بل اختبأت تحته، صدقني أنت لن تكون بطلاً، أنت تسترد كرامتك فقط، أنت صاحب حق.

اقطع قضيبه يا مطيع كأنك فعلتها بالخطأ، لا تقطعه بسكين، انتزعه من جذوره مرة واحدة، كي يموت مراتٍ ثلاثاً: مرة بعجزه وثانية بسقوط صولجانه وأخرى بغيابه، انزع الرمز الذي يتباهى به وينتظر عودته. الذين يجعلون علاقاتهم بالنساء معركة، يشعلون النيران في أي كائن طالما طالته أيديهم.

أنت لا تصدقني بالطبع، وستصدق من حولك، الناس خذلوك، إنهم ضعاف مثلك، لكنك الآن لست في حاجة إلى الخذلان، لديك منه ما لو حملته مراكب كولمبوس لغرقت في المحيط قبل أن تبلغ الأعتاب.

.. لماذا لا تشرب، هل أصب لك كأساً أخرى؟ أم أنك مثلي تدوخ من زجاجة واحدة؟ أين مأمون، من هو؟ ومن الذي كتب التقارير التي وجدتها في الحقائب في الحفلة الأممية؟

- لم يعد لديَّ وقت طويل، لا تبحث عن مأمون، هناك مليون مأمون، لا تفكر لحظة في مسامحة جلادك ولا في قتله، عذبه بالقسطاس والبادئ أظلم، اصنع له قفصاً من أربع جهات، اجعل بابه قريباً من الشباك لينتحر في لحظة نزق مفاجئة، لا تجادله، كن جلاداً مثله.

عاش بيقين واحد: أن كل جسد لم يذق طعم الهوان لا يعوَّل عليه، وأن كل من لم يشم رائحة الجسد البشري المحروق باطل، هو يعتقد أنه على صواب والكل على خطأ، الضابط الذي دافع عنك وأراد إخلاء سبيلك من القبو لأنه لا يوجد مأمون من أساسه تم نقله في نفس اليوم، قال بالحرف الواحد إنك متهم بلا تهمة وتلقى الرد واللوم على كلامه بأن أمثاله هم سبب غياب التهم ووجود الأشرار.

مأمون حولك، لكنك لن تعرفه، كلكم مأمون، أنتم قمتم مقامنا، أرحتمونا من مهمتنا، أنتم الشياطين، الحكومة حولت الشعب كله إلى مآمين، كلهم سواسية، الكل يكتب حتى يتساوى في الأجر والإثم فيدخلون جهنم معاً بعيداً عن قادتهم، وليواجه الجميع مصير الجميع.

.. صدقني أنا، أصعب ما واجهته لم يكن التعذيب وحده، بل استماتتهم وتفننهم في دفعي إلى الإحساس بالدونية، كانوا يتركونني في قذارتي لأيام لأكره نفسي وأسلمها لهم، لكنني كنت أدرك أن لا أحد يستطيع أن يشعرك أنك حقير طالما لم تشعر أنت داخلك بذلك، كلما واجهتهم باليقين أنني لا أعرف شيئاً على الإطلاق يبتزونني ليستبقوني في موقع المتهم عنوة. محقق تلو آخر، جلاد غير شقيقه، كلما رغبت أن أنسل منهم يلعبون بي ويتركونني جوار الحائط بالساعات.

- أنتم حقراء يا مطيع، أخاطبك باسمك الذي تعيش فيه، لم أشأ أن أذكرك باسمك القديم، أنت متسق ومتناغم مع الجديد، أفعالكم أيها البشر لا تكف عن ملاحقتكم، لاحقه بما فعله بك، اكتم أنفاسه، لا تجعله يتنفس، وحين يوشك على الهلاك أعده إلى الحياة، ثم اكتمها ثانية.

.. أنت تعرف كل شيء عني، لا بد أنك شاركته في غوايته، ثم تريدني الآن أن أشاركك في غايتك.

- لا تستفزني، لا أريد أن أصرخ صرخة توقظ الناس والأموات من مراقدهم، يا مطيع، لم يعذبوك، لم يعرفوا لك تهمة يحاسبونك عليها لذا راحت الأقدام تتقاذفك كأنك الشيطان، كأن الخطايا تجسدت فيك، لم يعذبوك البتة، أنت واهم، تعذيب الآخرين أمامك جعلك تتوهم أنك ذقته، لم يفعلوا بك شيئاً سوى أنهم حشوا أنفك وفمك وأذنيك بالقطن ليحبسوا روحك في داخلك، كي تخرج روحك من مؤخرتك، حشوك بالقطن المعقَّم كي تموت معقماً، ميتة مطهرة، ولا يستطيع أمهر طبيب أن يعرف السبب، إنهم يقدسون أفعال أسلافهم منذ ألوف السنين.

.. من الذي أوحى لهم بذلك، من الذي زين لهم أفعالهم!

- لا تشوِّهوا الشياطين، أكبر لطمة لنا في تاريخنا المجيد حين تم اختراع آلات التعذيب، يومها لم ينم أحد من الشياطين، ثلاث سنوات شيطانية متصلة ونحن متيقظون دون نوم، شعرنا بالعار والخذلان، كدنا أن نقوم بمظاهرة لولا أن التظاهر سيودي بنا إلى المجهول، وربما رمانا جميعاً إلى الكواكب البعيدة عقاباً لنا.

كيف يطيق كائن إنساني أن يسمع صراخ الألم؟ أنتم قتلة يا مطيع، أنتم تعذبون بعضكم بعضاً، على أية حال لا تحزن الآن، خل حزنك بعد الموت، لم يعد لديَّ من الوقت الكثير ولن أعود إليك مرة أخرى.

.. لم يعد لديَّ ما أحلم لأجله، خسرت مطاعاً وفقدت روحي.

- لديك الكثير، يجب أن يعيش هو ليتفرج على موته بعين مفتوحة، تذكر أن أباك مات وأنت في القبو، في الطريق بين الجمعية التعاونية والبيت، كل أسبوع يقف في الطابور لساعات وهو الرجل الكبير ليحصل على أربع دجاجات، يعطي نصفها لجارتك ويخزن لك

النصف الآخر لوقت خروجك، في اليوم الأخير جاءه خبر أنه يستطيع أن يزورك، صدم من الفرحة، لهفته دفعته لأن يقطع الطريق لا يألو على شيء سوى رؤيتك، صدمته سيارة وطارت الدجاجات مع روحه إلى السماء، لم يعد لديك ما تبكي عليه، خذ بثأره من الجلاد، خذ بثأر الدجاجات، وعش طويلاً وسعيداً وفاءً لذكرى الرجل الذي أحب أن تعيش سعيداً.

.. هل أنت من كان يأتي إليَّ في الأحلام؟

- نعم، أنا لا آتي في الكوابيس، الكوابيس بها بشر دائماً.

.. ألا تأخذ معي كأساً أخرى، هل تتركني وحدي؟

- لا تقلق، حولك عشرات الأشباح تحلق في رأسك وتخرج منها لتدور في الغرفة، يجب أن تنساها كي تتبخر، دعها تنتحر أمامك كأنك لم ترها من قبل، اقتلها بتجاهلها، عذبه لترتاح وتُشفى من نارك، الجريمة بأثرها يا مطيع وليس بالوقت الذي استغرق في ارتكابها، جئت لك من وراء قومي ولن أعود ثانية، ثم إن هناك من ينتظر خلف الشباك يراقبني ليدخل هو.

.. هل هي ناري أم نارك؟ هل أنت من تحكي أم أنا، هل أنا الذي أتكلم أم جروحي، ولماذا لم أذهب إلى عيد الميلاد، ولماذا أتيت لي من أساسه ما دمت تتركني في منتصف الشراب وتنسحب؟

- دعه يا مطاع، دعه يذهب، قال ما عنده، شيطان طيب، أمهلني لحظة فقط، أرتب الزجاجات، أُبعِد الفارغة عن الملآنة وأخلي مكاناً لقبعتي، أنت كما تعلم لا ألبسها إلا أثناء إخراجي للأفلام، لكنني أتيت بها تحية لك، وسأتركها لك حين مغادرتي.

.. لماذا تركتني وحدي يا فيلليني، وأنا صوتك في هذه البلاد، كل من يريد أن يعرف شيئاً عنك كان يطرق بابي، ما من همسة لك داخل ستديو التصوير إلا وسألوني عنها وأنا توليت الإجابة عن أشياء لم تحكها

لي، ملامحي كادت تقترب من ملامحك، أنت تعرف أن ملامح العشاق تكاد تتشابه بعد فترة، لولا أنهم شوهوا ملامحي لمضت في طريقها إلى تقاسيمك، صرت أرتدي القبعة وأرتدي ملابسك التي انتهت موديلاتها واخترعت لك حذاءً قلت إنه الموديل الذي تفضله، مدبب من الأمام، رغم أن قدميك صغيرتان على جسمك المهول وقدميَّ كبيرتان.

- أنا كنت أحلم بالأفلام وأنت تحلم بي، لذا فنحن متعادلان، لكن لا تنس - وأنا لا أمنُّ عليك بشيء- أنني من ساعدتك في الوصول إلى حقيقة ما حدث معك، واليوم جئت لأساعدك أن تصل إلى حقيقتك أنت، لن أكذب عليك، ولقد سامحتك في موضوع الحذاء بل فرحت بك لأن خيالك كان أقوى من الواقع، والحياة بدون خيال شيء بشع.

.. لكنني ساعدتك أيضاً، بدؤوا بمعرفتك حين عرفوا علاقتي بك، أنت تعرف أن النملة هنا لا تمر إلا إذا كانت على مقاس نملنا، بل أصبحتَ شهيراً عند الجلادين أيضاً، وهذا جمهور جديد لم يكن في عداد عشاقك.

- عشاقي! لو أن هؤلاء شاهدوا فيلماً واحداً لي لتغيروا من زمان، على أية حال دعك منهم، سيشاهدني آخرون ليتعلموا كيف يثورون عليهم يوماً ما، أنا أتيت لأجلك فقط، لأنك آمنت بي، ووضعت جملتي في عيادتك، في قلبك قبل عقلك: الأحلام آخر ما يموت.

أعرف أن بعض المحللين النفسيين لا يؤمنون بالحلم، لا يتخذونه سبيلاً في علاج مرضاهم، لكن أُغلبيتهم ينامون على أحلام الآخرين، وأنا كما تعرف أحلم وحدي، أرى كل أفلامي في الحلم قبل أن تتحقق، وأنت أيضاً يجب أن تفعل ذلك.

.. هل تريدني أنت أيضاً أن أعذبه؟ أنا أريد أن أرتاح بأية وسيلة.

- لا. أريدك أن تفعل العكس، لا تجعل نوازعك الفطرية تأكلك، أريدك أن تتركه وزوجته إلى حال سبيلهما، اعتذر بأية طريقة، يمكن لك أن

تغلق عيادتك لشهر وتكتب عليها أي شيء من وحي اللحظة، قل إنك ستسافر وستعود بعد عام، أنا كنت أرتب المشهد الجديد أثناء الاستراحة، لم أكن أكتب شيئاً من أساسه، الفكرة العامة كانت فقط في رأسي وأخترع مشهداً بمشهد، كنت أصغي أحياناً لحركة الممثلين والمساعدين أثناء التصوير وأخلق المشهد الجديد على ضوء ما حدث في التو واللحظة، الناس لا يستطيعون أن يتخيلوا ما يحدث خلف الكاميرا، إنه أحياناً أكثر درامية مما أمامها.

.. لكنني حلمت أن أجده ووجدته.

- كل حياتك قامت على جملتي: لا شيء أصدق من حلم، وتحقق الحلم، دعه إذاً وتقدم لحياتك، اهزمهم بأن تصنع حياة أخرى مدهشة، لن يهزمهم قتلهم، إذا سقط منهم واحد تشققت الأرض عن عشرة، كل ما فعلوه بك يريدون شيئاً واحداً: أن يجردوك من أحلامك، اتركه إذاً ونم واحلم حلماً جيداً.

.. لكنني تغيرت، لم أعد أتذكر شيئاً سواك، سوى جارتي وأبي وحلم غائم.

- احلم بمطاع، اجذبه بقوة من ماضيك، وإذا كان من الواجب أن تقتل أحداً فاقتل مطيعاً، الشيء الذي يجب أن تعشقه وتحرص عليه أن ترى صورتك في المرآة، ترى مطاعاً في مطيع، عليك أن تتخلص من الأدران وتعطي لحياتك قبلة جديدة، ودعك من الحلم الغائم، الأحلام تقاوم التفسير الواضح.

.. لكنني وحيد.

- لا تركن للوحدة، أنت لا تستطيع تحملها بعد ما حدث لك، اخترع عالماً جديداً وبشراً آخرين، أن تكون وحيداً وسط المجموع معناه أنك في أشد ما يمكن من الوحدة، أعرف أن التعذيب يجعل الوحدة كابوساً يتمشى على أربع أرجل في أنحائك، لذا يجب أن تنساه وأن تقتلها.

الوحدة شيء خاص، والقدرة على أن تكون وحدك أمر أكثر ندرة، ولقد غبطت دائماً أولئك الذين يمتلكون طاقات روحية لأنها تمنحهم استقلالاً وحرية يقول الناس إنهم يفتقرون إليها.

الناس يخشون الوحدة أكثر من أي شيء في الحياة، حتى جلادك هذا يخشى الوحدة أكثر ما يخشى، إذا تُرِكوا وحدهم بضع دقائق فقط فإنهم يبحثون عن شخص ما، أي شخص بغية سد الفراغ، إنهم يخشون الصمت. الصمت وأنت وحدك مع أفكارك، مع المناجاة الداخلية التي لا تنتهي.

إذاً عليك أن تحب صحبك كثيراً، يجب أن تعني شيئاً لأحد، افعل ما لا تستطيع قبوله كله، في لحظة قاسية لم يكن لديك شيء تتشبث به سوى الحياة، والآن ليس لديك شيء سوى ركل حياتك الماضية، الإنسان يواصل الحياة ما دام هناك أحياء يعرفونه ويحبونه ويهتمون به.

.. لكنني خائف، رغم أن صيدي بين يدي وتحت قدمي.

- الخوف يذهب بخوف أكبر منه صدقني، تخلص منه حتى لا تذهب إلى المجهول، وأخلص للحياة طالما اخترت الحياة، الذين يناضلون تحت وقع سنوات التعذيب، لا يُذْكَرون دائماً في دفتر الأحياء، ولا تُقام لهم شواهد في بلادكم، يتذكرهم الناس في لحظات الضيق فقط ليشحنوا بطارياتهم بهم، لكن حين تسقط راية وتُرفع راية لا يتبقى لهم سوى خطب رنانة لحظة وداعهم إن سمحوا لهم، لحظة أن يكون جيل جديد قد ولد يستغرب من خطب تُرمى كالتراب على المقابر أثناء الدفن.

إن احلامنا وكوابيسنا هي نفس أحلام الناس الذين عاشوا منذ آلاف السنين وكوابيسهم، إن المخاوف التي تشعر بها في عيادتك أو بيتك هي نفس المخاوف التي عاناها سكان الكهوف، وإذا كان الأمر خلاف ذلك فلماذا يقبل الناس مثلاً على ركوب قطار الملاهي الأفعواني رغم خوفهم منه؟

.. لكنني خائف.

- الخوف يضفي على الحياة حدة وإثاره طالما فاجأنا بجرعات صغيرة، الشجاعة القصوى يا مطاع حين تقهر خوفك، الذين لا يخشون شيئاً هم المجانين أو المرتزقة، حتى الجلادين يخافون من جلادين أكبر منهم، السفهاء والأشرار مساكين.

يجب أن تحب الطريق إلى العيادة، إلى المنزل، وأن تدخل أي قبو يصادفك، حتى لا يبقى سجناً لك، اشتريت أكبر شقة مضيئة لامعة خوفاً من وحشة القبو، لكنك يجب ألا تخشى لمس مفاتيح الكهرباء، انزع القطن الذي تضعه في أذنيك حتى وأنت تسمع الموسيقى.

عد لروحك القديمة، لا تخش البيوت القديمة وأنت تمر أمامها، أنت تشبهها، هي فقط منهكة من الغرام، الجمال المتهالك يجذب الروح أيضاً، تكلم لا تظل صامتاً، ربما يكون حلماً أو كابوساً إن واجهته بالكلام اختفى.

.. والماضي؟

- الليل الطويل الذي ما زلت غارقاً فيه يجب أن تهزه، غنِّ وارقص وإن لم يزل جرحك مفتوحاً بقوة، ارقص وأنت حر تماماً، ارم نفسك في نهر النساء، من يحب النساء يظل شاباً، ومن يكن شاباً يحب النساء، تذكر دائماً عبارة كازانوفا: إن غياب الحب هو أعظم الآلام، علقها إلى جانب عبارتي، يا مطاع صحيح أن البحث عن الحب لا يعني الحصول عليه، كما أن منح الحب لا يضمن تلقيه، لكنك ستصادفه أو سيصادفك، لم أشأ أن أذكرك بجارتك، فهي شهية ومن أثرياء الجسد والحنان، وحدائقها تكفي مدينة وتحبك.

.. أعطني علامة.

- أنا لست قساً ولا إلهاً، لا أريدك أن تؤمن بي، أريدك أن تؤمن بنفسك، ستظهر أحلامك لك وحدك، وستضيء علامات في

طريقك، وعلى روحك أن تكون متوثبة لالتقاطها، أنا لست عرافاً يا مطاعاً، أنا أؤمن بالعلامات وأعيش بالأحلام، حلمت بموقف الباص وبشخص يقف وحيداً ذات ليلة يضع يديه عميقاً في جيوب معطفه من شدة البرد ثم يخرجها فجأة، يصنع من واحدة قوساً ويصنع من ذراعه الأخرى كماناً، يضرب برجليه خفيفاً وسريعاً في الأرض كمجنون رسمي، حلمت بنينوروتا الذي صنع موسيقى أفلامي، كان قد مر على الحلم فترة لكنني حين شاهدته وحيداً كما جاءني في الحلم عرفت أنني وقعت على صيدي فأمسكت بتلابيبه.

.. لكننا نعيش بين أوغاد تخشاهم الحيطان والأطفال.

- أنا لا أؤمن أن هناك أوغاداً، بل بشراً فقط، فالأخيار قد يتصرفون أحياناً كالأوغاد، والأوغاد قد يكونون ضحايا الظروف، وقد يكون أحدهم شيطاناً أسود القلب ويمكن أن يؤثر فيه مواء قطة صغيرة.

.. مواء قطة صغيرة! إنهم يصطادوننا حتى بالألعاب الطفولية التي تسكنها البراءة.

- اصطادوك من لعبة الهمس أو لعبة القاعات، حين كنت في المؤتمر الأممي المنحوس، واحد على الطاولة يهمس لرفيقه بجملة ليمررها لزميله ثم لزميل آخر وهكذا حتى تتحول في النهاية إلى جملة أخرى عكس الأولى تماماً، أعرف أنك قلت: أحبك، وربما كنت تقصد أو تتخيل أن تنتهي في النهاية إلى: أحبك يا جارتي، أحبك أيها القائد الخالد أكثر من أبي وأمي، أكثر من طاحونتنا، لكنها للأسف انتهت إلى: أحب أن أراك مهزوماً أمامي، ربما من قالها كان يقصد أن يرى جارته في المقعد مهزومة أمامه في السرير، لكنهم يستنشقون الرعب وأدمغتهم خائفة، ومن أجل ذلك كانت الحقائب مكتظة بالوشايات.

حاول أن تصنع من القصة قصة أخرى، أنا موقن دائماً بأنه يمكن تحويل قصة الفيلم إلى فيلم آخر، حاول أن تصنع أنت الفيلم بدلاً مني وعليك

أن تغير النهاية التي أرادوها لك، هم بدؤوا الفيلم لكنك وحدك من تملك النهاية.

كن سعيداً يا مطاع، المستبد لا ينام حزيناً.

أزحت لك الزجاجات الفارغة عن طاولتك، وتركت لك البقية، انزع القطن الآن من أذنيك، لا ينبغي أن تسمع كل شيء صراخاً حتى الموسيقى، موسيقى نينوروتا يجب أن تُسمع كما هي، وسأخفض صوتها قليلاً بعد إذنك.

قبل أن أمضي، كنت سأنسى شيئاً مهماً: اليوم هو عيد ميلادك يا مطاع، وأصدقاؤك انتظروك في بيت جبري ولولا أن جولييتا زوجتي أخرتني لجئت في الميعاد وذهبت معك، أنت تعرف جولييتا مثلي، لو لم أذهب معها للطبيب لتخيلت أن لديَّ موعداً غرامياً.

لا تحتفل وحدك ثانية، أصدقاؤك ينتظرونك غداً في نفس المكان.

ما هذا الصوت، وما لهذه الزجاجات تُطاح مرة واحدة من على الطاولة، وما الذي جاء بي إلى العيادة؟ لا شيء على حاله، فقط ما زالت الموسيقى تتصاعد، عيوني غائمة وقبعة تشبه قبعة فيلليني معلقة برشاقة على الحائط.

-١٠-

- ماذا تريد يا مطيع؟

ماذا تريد!

هل تتخيل أنني لا أسمعك، لا أستطيع أن أراك بقفاي! وأنا الذي يمكنه أن يحكي لك قصة حياتك أفضل منك وأكثر دقة، أعرفك أكثر منك، هل تتصور أنني لا أرقب حركتك خطوة خطوة أو لفتة لفتة، حين أرى عينيك أقرأ ما كنت تفكر فيه من العام السابق، وأعرف متى تلعب بأصابعك داخل حذائك.

لا أصدق أنك تراني مشروع جثة، رقبتها ملوية إلى اليسار، لا ترى شيئاً سوى ما يسمح به واحد مثلك، حين تقرفص في مواجهتي بمسوح المسيح لتسألني عما ألمَّ بي، وأنت تريد أن تصرخ في وجهي بما ألمَّ بك، لا أصدق أنك فقدت الربع الباقي من عقلك، الربع الذي برمجناه على مقاسنا.

عيونك تفضحك، أقرؤك منها، وأستطيع أن أشد ما تخفيه في قعرها لأضعه أمامك عياناً بياناً، لكننا لسنا مثلكم، عيوننا ليست إلى الأمام كما تعتقدون، بل ترى من الخلف، من الجهات الأربع إن لزم الأمر، نحن هكذا، وأنا الآن عدت لطبيعتي الأولى بعد اعوجاج رقبتي، عيوني في قفاي وأسمع بأربعة آذان، وما تراه الآن ليس أذنيَّ الحقيقيتين اللتين ولدت بهما، لقد التهمت اللتين ولدت بهما ذات يوم، ثم نبتت مكانهما أربع: اثنتان مرئيتان واثنتان مخفيتان.

هل تخيلت في أحلامك لحظة أنني سوف أحكي لك شيئاً! نحن من

يُحكى لنا بالهدوء أو بالعنف، وأنت لم تُجن بعد، كان يمكن أن تصير مجنوناً لو لم تطح بي الصدفة إلى صحنك، كنت تعيش في أيامك الماضية فقط، مؤرقاً، تدور فيها كثور في ساقية، لا تعرف أين أنت ولا أين تمضي، لكنك منذ رأيتني صرت مهووساً مرة بقتلي ومرة بتعذيبي، والآن صرت معتوهاً تريد أن تقطع قضيبي، أنت تريد أن تنتقم لآخرين مهووسين مثلك، خذ عندك حكمة الطبيعة وضعها حلقةً في أذنك: لا أحد يستطيع أن ينزع سروال امرأة وحده مهما كانت قوته ما لم تشاركه ولو بالاستجابة لضغطه.

اسمعني جيداً وقف وقفة رجل، لا تقف أمامي برجل محنية وابتسامة متشفية، خسئت حيث أنت، أنا الذي أتيت بك لتسمع فقط، لست أحتاج إلى مقارعتك الحجة بالحجة، ماذا دهاك! هل نسيت نفسك! أنت الآن مطيع اسماً ومعنى، نحن من اخترعنا الروبوتات قبل أن يخترعها اليابانيون، هم يصنعونها من جماد ونحن نتفوق عليهم بصنعها من بشر، من لحم ودم، هم يحركونها من بعيد بريموت ونحن وضعنا الريموت نفسه داخلك، وصل بك الأمر أيها التافه إلى التفكير في قطع رمز رجولتي، الذي يفكر في أمر كهذا معناه أنه استعاد قواه العقلية وهذا ما يُحسب لي، أو أن صواميل مخه قد اهترأت وأصبحت ناعمة لا تستطيع أن تقبض على مسمار حقيقي، أنا مسمار كبير برأس واضحة للعيان مهما مرضت.

.. حتى وأنت في عز هزيمتك تبدي الصلف، أنا لا أريد قطعه لأنك اقترفت به ما اقترفت مع أنه سبب كافٍ، لكنني سأزيله من جذوره كي تلتف رقبتك إلى الخلف هذه المرة وتستقر على سوأتها خجلاً، لتعرف معنى الخجل مثلنا ولتتأكد لحظتها أنني أهديتك ما لم تكن تحلم به، فضيلة الخجل، أو كي تمشي بلا رقبة أساساً. أنت عشت حياتك على أن قطعة من الجلد هي من ترفع رقبتك عالياً، وتعيش حياتك القادمة بأمل أن يستعيد شره وتستعيد جرائمك سعيداً، لن أفعل لك إلا شيئاً واحد، سأحرمك منه، سأحرمك من الأمل، أنت لم تحرمني من شيء يوماً سوى الأمل.

- قف أمامي كرجل، الجنود الحقيقيون لا يعذبون الأسرى، لا يحبسونهم فرادى، لا يضعونهم في أقفاص، أنت تريدني وحدي، وحيداً، لم أرَ عندك أي مريض خارجاً أو داخلاً، أنت كرست كل حياتك لي مع أنني لم أستضفك أكثر من ثلاثة أسابيع، أنت لا تعطي مواعيد لمرضى آخرين، كأنني مريضك الوحيد أو عشيقك الأوحد، الحياة قاسية يا مطيع لدرجة تحويل المستحيل إلى واقع، وأنا في عيادتك الآن، لن أقول بين يديك فهذه كبيرة عليك وعلى غيرك، ماذا تريد؟

.. أريد سيفك، أعلقه فوق القفص، تراه ويراك، تبكي عليه بقية العمر ويبكي أمامك مرة واحدة، تدمع دماً طول الوقت ويدمع هو أيضاً دماً لمرة واحدة، لا أريد قتلك، قتلك جريمة لا أريد أن أوسخ يدي بها، ونهاية جيدة لا تستحقها، ولن أعذبك مع أنك تستحق، تعذيبك يجعلني مثلك وأنا أربأ بنفسي أن أكون مثلك، لكنك يجب أن تذوق شيئاً بسيطاً يلازمك طوال أيامك الباقية يذكرك بي، كما كان كل شيء يذكرني بك.

- لا يليق بك أن تقبل كلام الشيطان ولا تقبل مني، شيطانك جبان ولو لم يلبس طاقية الإخفاء لاعتقلناه واعتقلنا من أرسله، هو الآن ليس مشغولاً بك، بل يريد أن يستخدمك، بعض أبنائه معتقلون لدينا ويريد أن يخلصهم بالانتقام منا، بقتل واحد مثلي، النبوءة تقول إنه كلما قُتِلَ ضابط أُطْلِقَ سراح شيطان.

نحن من ندرب الشياطين يا مطيع، نعد لهم دورات تدريبية مكثفة ليتعلموا منها، إن كل ما يعرفونه قائم على الغريزة والهدف، وأهدافهم عامة حتى لو تقصَّدونا فرداً فرداً، لكنهم جبناء حين يقابلون واحداً شجاعاً، لم يجرؤوا مرة أن يقابلوني ولو صدفة في شارع مزدحم.

.. الشيطان أفضل منك، هو ولد هكذا ولا يستطيع أن يغير من نفسه، بعضهم بالمناسبة يجد دموعاً في مآقيه ليبكي على معذب، أما أنت فاخترت أن تكون شيطاناً بمحض إرادتك.

- يا بني، أنت غض لا تعرف شيئاً، في طبيعة كل واحد منا ميل إلى التعذيب، مما يجعل الجميع ضحايا طبيعيين في نظره، ومستحقين في النهاية، التعذيب أمر مقبول بل ضروري، ثم إننا لم نفعل بك شيئاً، لم نعذبك ولم نلفق لك تهمة أرسلناك بها إلى السجن، نحن وضعناك في الأعراف حتى تتبين حسناتك من سيئاتك، لكنك تريد أن تحاكمني، أنت الخصم والجلاد، تريد أن تضع هامتي تحت الأقدام، أنت أسوأ مني ألف مرة.

.. أنت عشت حياتك تعتقد أن عليك محاسبة الناس في الأرض كي لا يتعب الملائكة في أوراقهم يوم القيامة، أقمت القيامة قبل ميعادها، صنعت من نفسك ظلاً للشيطان والإله معاً على الأرض، وتتخيل نفسك قائد فيلق تقودنا يوم القيامة لتسليمنا طائعين مطأطئين، خالين من كل سوء.

- أنت فهمتني خطأ منذ البداية، وكل ما بنيته كان بسبب هذا الخطأ المبدئي، كانت لي مهمة واحدة شريفة هي أن أزيد عدد أصحاب الشعر الأبيض في هذا البلد ليصبح بلداً وقوراً، هذا هو القانون، ونحن من نخلق القانون، نحن نراكم دُمىً، وكل واحد منكم تطاوعه نفسه أن يمتلك رأساً، يخرج من عندنا برأس آخر أو برأسين ليصل إلى الملائكة جاهزاً، هل تعتقد أن حلق شعر المساجين على الزيرو للتسلية أو الاستهزاء، نحن نسلم الزبون تسليم مفتاح لأهله أو للملائكة.

تضحك يا حشرة، لم أشأ أن أؤذيك، كنت فقط أريد أن أخرج المضغة السوداء من قلبك وقلب غيرك لتصيروا أنبياء، غيرك ذهب في أفضل الحالات لمستشفى المجانين.

مهمتنا الأساسية أن نروِّض الشخص لا أن نقنعه، وعليه لا يمكننا أن نترك الأمور لتصاريف القدر، لا ينبغي أن تنتج الأمة بشراً على غير هوانا.

.. لن أدعك تموت، أنا أمزح معك، أنا معالج نفسي ولست جلاداً، ستخرج من هنا دون سيفك فقط كي تعيش بلا أظافر، بلا أصابع، الأصابع لا تستطيع أن تقوم بدورها في غيبة الإصبع الأكبر، تنتحر وحدها إذا مات أو أصابه مكروه.

- ما تصنعه ليحميك سيصير سجنك، سينغلق عليك قفصك، القوي يحكم الضعيف، هذه هي المعادلة وستظل أبد الدهر كما هي، ولن تجد أحداً تشكو إليه، تشتكي لمن!! لخائفين مثلك! لجبناء، أول درس أن لا تأكل مما يطبخه الجبان، يطبخ العدس ويظنه لوبيا، ولا تأخذ بمشورته، لا يستطيع أن يحمي عنزة في بيته، لا تشتكي لمن لا يجدوا قوت يومهم.

أحببت أن أحميك من نفسك لتعيش سعيداً مستقيماً، لم يكن مطلوباً منك أن تعترف كما تتخيل، مطلوب منك أن تبدي الذل كي تستطيع أن تعيش معنا، أنا لست مذنباً، أنتم المذنبون، وخذ حذرك جيداً، إذا وقعت أنا سأقف من جديد، أمثالي لا يموتون ولم يُخلَق بعد من يقطع سيوفهم، نعم نحن لا نموت ولا المطربون يموتون، نعم المطربون والمجاهدون أمثالي تظل أغنياتهم صالحة لكل زمان، أغنية المطرب صالحة عندنا لكل وقت وكذلك أغانينا.

.. هل ستظل طوال الوقت تتحدث بلساني!!

- أنت تتحدث بلسان الجميع، أنت تريد أن تنتصر للجميع، أن تفعل بي ما يجعلهم يمدون رقابهم مرة أخرى، وهذه هي الخطيئة الكبرى، صدقني أنت من تحتاجني لتُشفى، أنا لا أحتاجك في شيء، أنت وزوجتي تفكران في الانتقام مني بتجريدي من رمحي مع أنكما تمتعتما به وبطريقتي التي لا تقدرونها ولا تستحقونها أصلاً.

.. بالمناسبة، أنا أيضاً أسمعك جيداً وأقرؤك من عينيك، أقرؤك بالخوف الذي لا تعرفه إلا في ملامحنا، أرقبك الآن وأنت بين يديَّ مشروع

جثة مشوهة، أنا الآن أفكر بكفنك، كيف سيضعون رقبتك فيه، وهل يوجهونك ناحية الشرق لتكون رأسك ناحية القبلة حين يدفنونك، حتى وأنت ميت ستذهب ذليلاً تحتار الملائكة في حالتك فيتركونك للشياطين أمثالك فهم أدرى بك، حتى الشيطان نفض يديه منك، لكل واحد ملكان يمين وشمال وأنت لك ملكان شمال، فر صاحب اليمين بملابسه وحل محله واحد آخر أصلع تبين من بطاقة هويته أنه من أصحاب الشمال.

بالمناسبة، أنا ملاكك الشمال الثاني.

- لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى يا حقير.

لا أعرف ما الذي يجعلني أستدعي واحداً كهذا، لا، أنا من أحضرته إلى غرفتي كأنني خائف منه، كأنني مرعوب أن تكون نهايتي على يد هذا المرتعش، هذا البليد لو قرأ فيلليني جيداً لعرف أنني أقرب إليه منه، هذا الرعديد يقول إنني مثل ممثل أدى دوراً واحداً في أحد الأفلام ثم عاشه في الحياة، دوراً واحداً وجد نفسه فيه ولم يستطع أو يرغب في تغييره، حتى لو كان دوراً رديئاً، هذا المعالج نفسه مثل دوراً واحداً لفيلليني ومن يومها وهو يدور في فلك أوهامه التي يعتبرها أحلاماً ويبجلها كأنه يقرأ ألواح موسى، يحلم دائماً أن يكون مثل بطله المفضل: الولد ماستروياني، بالمناسبة فيلليني حلق لماستروياني شعره والأخير مات من الرعب، خاف ألا ينمو ثانية لكنه نما، ونحن حلقنا لهذا المعالج الخرف شعره ولسوء الحظ أيضاً سينمو وسوف تتداعى إليه النساء كما حدث لماستروياني للأسف، مع أنه من المعروف أننا حين نحلق شعر واحد لا يستطيع أن ينمو ولا يجرؤ.

ربما أصابني وهم القوة في لحظات بشلل في رأسي وجعل طريقي باتجاه واحد، لكنه الطريق الذي اخترته منذ البداية، ربما بمحض إرادتي وربما لأرفع عن كاهل عائلتي الخوف من العسكري الذي ما إن يظهر حتى ترتجف القلوب.

في لحظة أولى كنت أفكر بأنني كنت أريد أن أكون ضابطاً حتى لا

يقول لي واحد منهم ولا لأي فرد من أفراد عائلتي: أين بطاقتك؟ بعض الضباط يتخيلون أن وظيفتهم الحقيقية هي بث الرعب في قلوب الناس وتعذيبهم، والبعض الآخر وأنا منهم جاء من الطبقات الدنيا، يريدون أن يصبحوا ضباطاً، يموتون في الوظيفة حتى لا يضع أحد قدمه على رقابهم، حتى لا يصرخ فيهم: أين بطائقكم، ربما هذا هو السبب الذي جعلني أسأل كل واحد أصادفه عن هويته، الخوف يلد خوفاً لكنه يلد أحياناً بطشاً، لكنني لم أفعل إلا واجبي، ربما فعلت كي أنسى الخوف، نحن في مجتمع ينسى من دافعوا عن وجوده بمجرد خروجهم من تحت الضوء، يمحو أسماءهم وإن تفاخر عند الضرورة بتاريخهم، والمجد فقط للذين يركبون الكراسي، أنا لست خائفاً من هذا الجربوع، وكل ما أخشاه ويرعبني هو زملائي الذين يجلسون فوق كرسيّي الآن وسيجلسون غداً فوق جثتي، لكن هذا هو طريقي الذي اخترته بمحض إرادة أو بعض خوف ولست نادماً على لحظة واحدة فيه.

اللحظة الوحيدة التي حاولت أن أنساها كانت البداية: كيف أطلقتُ النار على واحد لا أعرفه ولا أعرف جرمه، ثم تعايشت طول العمر مع هذه الجريمة، أقصد الحادثة، أي شيطان تلبسني حينها ولم يتركني من لحظتها؟

من لحظتها لم أتوقف عن الحلم للناس ولو بقتل الناس، ظللت أحلم نيابة عن الجميع.

هل شيطاني هو الشيطان الذي جاء لمطيع لينتقم مني بعد أن انتقم بي!

كل البشر يلعبون وهم صغار لعبة العصابة والبوليس، في البلاد الأخرى يختار الناس العصابة، وفي بلادنا كلهم يختارون أن يكونوا في دور البوليس.

لم أكن أعمى يوماً ما، لكن المكواة الساخنة كانت تكويني كل لحظة على قفاي من مروق الناس ومن القلوب الرخوة لبعض زملائي.

لا أستطيع أن أذهب إلى أبي يوماً دون سيف، يكفي ما حدث أمامه

حين رشحته لمجلس الشعب في الدائرة التي أسكن فيها، قمت على رأس جمهور كبير بالمرور معه على أبناء الدائرة، كانوا يقدمونه باعتباره أبي، والد سعادة الباشا، وذات يوم حين طرقنا باب واحد من الرعاع، قالوا له: والد الباشا مرشح البرلمان. والحقير، ابتسم بخبث أعرفه وقال: هل هناك من لا يعرف سعادة الباشا! ثم في لحظة مباغتة أدار ظهره للجمع وكشف عنه لتظهر بعض العلامات البسيطة من تأديبنا له، انعقدت الألسنة للحظة ظننتها دهراً، والأيدي التي كانت تصفق ارتخت، والموسيقى المصاحبة توقفت، وابن الحقيرة ينادي بصوت مجروح بنبرة عالية: روح وأنت ناجح، روح وأنت ناجح، ولم يذرف دمعة.

لست نادماً على شيء فعلته، ضميري هو من كان يحكمني، البنت التي رفضتني وقالت إنني مصنوع من أوراق البنكنوت أثبت لها أنني مصنوع من حجر صوان وقلب ذئب عطوف على بقية المجتمع، دعوتها لشقتي الأخرى لتتفرج كيف تتبتل النساء في حجري، أخذتها معي للقبو لتسمع كل صيحة تطلق في الفضاء لتعرف أي نبي تركت، دعوتها للغداء وأعدتها لبيتها معززة مكرمة كي تذوق أصابع الندم طول حياتها، بالمناسبة لم أكن وحدي من فعل ذلك، بل إن السيد وزير الدفاع بجلالة قدره دعا الست عشرة امرأة اللاتي رفضنه وهو ضابط صغير، دعاهن للعشاء في بيته مع أزواجهن في مشهد لم يخطر على بال الرعديد فيلليني الذي يظن نفسه صانع سينما المؤلف الأول.

لست نادماً، ولا ذنوب لأكفّر عنها، كل ما يؤلمني أنني أذوق من كأس لم أسقها لأحد، لم أكن خصماً شخصياً لأحد، لكنني الآن هدف للسخرية من كل شخص ظن أني وقفت معه أو وقفت ضده، لا أريد وروداً ولا أستحق شماتة، ولا أفكر سوى برمحي وبالحقير مطيع الذي تجسد عيناه عيون كل المدينة.

تعال يا مطيع، تعال ثانية، أسرع الخطى يا جبان، سأحكي لك ما كنت

تفكر فيه بالضبط، كنت تلف حول سريري لترمق مؤخرة زوجتي وتقول لنفسك بالحرف الواحد:

اغتصبها أمامه، بكامل ملابسها كي لا يعتاد ثانية منظر اللحم، ليفقد شهوته، لا لا، أريده أن يظل مكوياً بشهوته، لو ماتت لما عاد لقطع قضيبه ضرورة، بل اغتصبها دون ملابسها حتى يرى أن جسدها ينطق أمامه بما لم ينطق به طوال عمره، دع الأعمى يرَ، دع الأعمى يرَ.

كنت تقولها بصوت عالٍ، وهي تردد وراءك.. دع الأعمى، دع الأعمى..

كنت تقول: دع يدك تتحرك كرأس مفتاح على ظهرها، اجذب لها سحَّاب فستانها بتؤدة، دع يدها تفتش بعشوائية من خلف عن مفتاح في جيب بنطالك الأيسر ثم تسحب سحَّابك لأسفل ببطء ولسانها يلعق شفتيها ببطء أكثر، يتسكع، بتلذذ واضح، بغيظ مكبوت، وهي تعض على شفتها بأسنانها ثم تستدير لترفع رأسه وتقف قبالته، وتقول بصوت عالٍ: اشرب مما سقيتنا، تعالَ اشرب معنا.

كنت تتسحب للحمام، تترك بابه مفتوحاً، ولا يصلني بعد صمت طويل سوى صوت يشبه القبلات، احتدام الشفاه، سوى لهاث وفحيح يطن أذنيَّ، تطيلانه كأنه السلام الوطني لدولة محتلة لم يبق منها سوى سلامها الوطني، ولا تتركان مكانكما إلا بعد سقوط جثتي على الأرض.

بالمناسبة يا مطيع، لقد أعجبتني جارتك، لكنني لا ألغ بئراً وطأها ضابط قبلي، أنا فقط أطهر الآبار ممن ولغ فيها.

ثم تعال هنا، قضيبك لم يتكلم مرة منذ خرجت من عندنا، وجارتك تشتكي للسماء، للأسف هي تتخيل أنك تعافها، قالت في البداية: إنها أثر الصدمة لكن البداية تكاد تصل إلى النهاية والقطار في محطة الانطلاق لم ينطلق بعد.

أنا وأنت سجينان، يجب أن تعالجني، تفك أسري كي تنفك قيودك،

أنا مسجون في سيف بتار فقد حدة نصله وأنت مسجون في خشبة يكاد ينخرها السوس.

انس أسئلتك، لا تفكر في مأمون، ولا لماذا دخلت القبو، من الذي وشى بك، ما تهمتك، ولا لماذا دخلت ولا لماذا خرجت؟

سيفي وخشبتك رهينتان، يجب أن تفك أسري لأطلق سراحك.

لا تضيع الورقة الأخيرة، حين يخرج سيفي بتاراً من جرابه ستنساني وتتخلص من همومك، انس ما قاله الشيطان وفكر بما قاله فيلليني، أحياناً يفكر بطريقة مقبولة.

ستظل تحوم حولي لتقع في شركي، أنت المذنب الآن لا أنا، هكذا تجيد الطيور إغراء الشرك.

انصرف الآن، انصرف.

ما هذا!! أين أنا، لماذا نمت كل هذا الوقت، ومن الذي جاء بهذا الأزعر إلى سريري، وأين زوجتي! يدي داخل بنطالي، أشعر بها ساخنة، وجلدتي تتألم، هل كنت أستمني كل هذا الوقت؟

-١١-

هل أصدق فيلليني؟

هل أمشي وراءه وأنا الذي طاردته طيلة حياتي كلها حتى صار كل من يعرفني ولا يعرفني يسميني: فيلليني الشام أو مجنون فيلليني، أمسح الماضي بممحاة مرة واحدة أو على الأقل أضعه هناك حيث يجب أن يكون، أركله بقوة بدل أن أسحبه من ذيله فأراه خلفي فيلاً يقفز مرة واحدة للأمام فيحجب الضوء والطريق.

الفرق بيني وبينه أنه كان يحلم أما أنا فلا أرى غير الكوابيس، كان يرى الفيلم كله في أحلامه لقطة لقطة وأنا أرى فيلمي في كوابيسي مشهداً مشهداً، يصحو وهو يفرك عينيه يكاد يطير من الفرح وأنا أصحو أجاهد أن أنتشل قدمي من القبو، أشدها، لا أستطيع أن أتركها هناك وأمشي أعرج بقدم واحدة وأحياناً بدون قدمين، هو ينسى الفيلم تماماً بمجرد أن ينتهي من وضعه في العلب، يمحوه من ذاكرته وينتقل إلى فيلم آخر وعشيقة أخرى، وفيلمي واحد لا ينتهي معروض على شاشة روحي طوال الوقت، كلما مرت لقطة جاءت أخرى أفظع منها ثم تعود الأولى مرة أخرى وهكذا، فيلم واحد لدار عرض واحدة طوال الوقت.

ثم ماذا تفعل في هذا الذي ينام أمامك كبغل على التروللي يداري بيديه كي لا تنكشف سوأته، أنا لا أراها هكذا، أراه نائماً برأس ثخين كصخرة شريرة، يخشى أن يجلس على كرسي مثل البشر حتى لا يبدو كلص في أحد الرسوم على جدران الكهوف، بعد أن تم توقيع العقوبة عليه بلف رقبته ناحية اليسار إلى يوم البعث، كي لا يستطيع أن يرى بريئاً أو متهماً أو يرقب

انحناءات امرأة على جذعها، ينام متبججاً حاملاً كل خطايا العالم على كاهله كأنه لو تخيل موته يحب أن يموت هكذا صلفاً بكامل أسنانه، لكن في لحظة ما تسطع في روحي كلهب، أرى بعين القلب أنه مهما استبد بي الانتقام أو غلبتني شهوة النصر لا ينبغي أن أراه إلا مريضاً يستحق العلاج ولو لم يكن يستحق الرحمة، هذا ما ينطق به ضميري الآن وما قاله فيلليني.

أود لو أرى ما تحت قشرة رأسه، أتحسسها، فحصوا مخ أينشتاين ولم يفحصوا دماغ جلاد، الأفكار الوسخة تنام تحت قشرة الدماغ مباشرة كما يقول البعض أو يتخيل، لكنني عندما أفقت من صدمة وقوعه بين يدي، وبعد أن قررت ألا أقتله أو أعذبه أصبحت متفائلاً بعض الشيء، بدل أن أنتصر عليه انتصرت على نفسي وعلى قهري، وأكاد الآن أصدق ما قاله فيلليني وأمشي معه يداً بيد، خطوة بخطوة.

صحيح أن التفاؤل يحتاج إلى ما يسنده وإلا كان هشاً، لكنني أفكر الآن - وأنا بوسعي أن أعلق له قضيبه أمام عينيه - أنه ربما أطعم قطة يوماً ما أو أمر جنوده أن يحملوها من الطريق العام إلى جانبه حتى لا تدهسها سيارة. يجب ألا يعمي الانتقام قلبك، عليك أن تعود قليلاً إلى الوراء باحثاً عما هو إنساني فيه، فربما أصرت ابنته أن تدخل كل قطة رأتها على سلالم المنزل إلى البيت حتى لا يأكلها البرد فطاوعها وتعود على القطط مع أن مثله بالكاد يحتفي بالكلاب، والكلاب الشرسة فقط، ربما نقد مجموعة من الأطفال في يوم عيد عيديتهم، ربما أمر زوجته بإطعام العساكر الذين يخدمونه أو بإطعام المتسولين في شارعه بأية مناسبة حتى ولو كانت مناسبة التجديد الخامس للسيد الرئيس، أو أنه هو الذي قام بإمداد المسجد الذي في شارعه بالسجاجيد والأضواء والصنابير، أصلح دورة المياه وجعلها آدمية، كان معاونوه وأشباحه في القبو يقولون أحياناً إنه من فعل ذلك مع أنه لم يثبت إن كان من جيبه أم من جيب الحكومة، لكن الدال على الخير كفاعله، كانوا ينقلون عنه قوله عنا: أن العيال أولاد الكلب أتعبونا، لكن ربنا كرمنا فيهم، وربما يكون قد نام مع زوجة البواب دون أن يحبس البواب.

نعم أفكر أن أسامحه بعد أن تنازلت عن بقية الخيارات، لكن الأهم من ذلك أنه يجب ألا أعتاد دور الضحية حتى لا أتحول إلى وحش مثله، كان يراك - وربما ما زال - حشرة على حائط، ولكن يجب ألا تراه أفعى على سرير المرض، يجب ألا تنسى هذا يا مطاع، لا تصنع لنفسك قبواً آخر، الحياة في هذه البئر مجهدة وعسيرة، لكنها ربما تكون رائعة إذا نسيت الماضي وسامحته، نعم إنه أمر شاق يجب أن تتفهمه بشجاعة، صحيح أن فهم الأشياء الصعبة لا يجعلها أقل صعوبة، لكن يجب عليك أن تحتمل واحداً قوي الشخصية والتاريخ حتى ولو كانت قوة قذرة لتكون قوياً، من يقصدون بابك ضعاف دائماً، كما أن أية علاقة في الواقع خير من عدمها، حاول أن تعترف أن كوب الماء الذي مددت يدك به إليه وهو مشبوح أمامك خلق علاقة إنسانية ما بينكما، كما أن قرص الدواء الذي أعطيته إياه ليهدأ ذات مرة جعله ينظر إليك بامتنان وأن هناك شيئاً حياً دب بينكما، ولا تنس أنه جريح في جسده وروحه، مهزوم لم يستطع خجلاً أن يحكي عن سبب مرضه ولولا أن زوجته هي من حكت لما فتح فمه، إذاً هو يملك بعض الحياء ولو كان مغلفاً بالصلف، أمثاله لا يمكن أن يتنازلوا عن صلفهم حتى وهم مرضى، لكنه الآن قليل الحيلة أمامك رغم تبجحه بذنبه، لا يعنيك الآن ذنبه طالما فكرت أن تسامحه، يكفيك أن ظلال القضبان راحت تتأرجح على وجهه فهرب الدم من عروقه، وأن وجهه تحول إلى قطعة من حجر تشقق سطحه وكاد ينفجر من داخله ويتفتت، ولكن هل تسامحه وحدك؟ والآخرين ماذا ستفعل بهم؟ هل تتنازل عن حقوقهم؟ جلاد الجميع جلادك والذي بطش بواحد فقط بطش بالجميع. لا يا مطاع، هناك ألف واحد غيره وستمر بما لا تستطيع التخلص منه، وحتى لو حاولت سيكون متأخراً جداً.

نعم سامحه يا مطاع، أطلق النيران على آخر أوهامك، انسف الماضي، كلما عدت له هاجمتك الأشباح، كلما نمت حلمت به، لا تحاول أن تبتزه لتظل مستمتعاً في موقعك، لا تتحول إلى نسخة منه ولا ينبغي أن تنساق

خلف نية الانتقام، أنت معالج نفسي، طبيب، ويد الطبيب هي يد النبي.

لا تضيع الورقة الأخيرة، لا تكن لاعباً في فريق العبث، الموضوع كله عبث في عبث، لا تعرف لماذا دخلت ولا لماذا خرجت، المنطق انتحر في قصتك، وأنت تفتقر إلى الإحساس بالأمان، لذا يجب أن تسامحه وتنسى.

أنت المريض وليس هو، انظر إلى التجاعيد على وجهك تبدو كأخاديد، في كل واحد منها صورة واحد مثلك، غيرك ذهب إلى طبيب نفسي ليعالجه ولم يبرأ، وأنت برئت بمجرد وقوع رقبته المعوجة بين يديك، يجب أن تحترم نفسك الآن، أن تجلَّها، لا تحتاج مرة أخرى الاكتئاب وسوء الهضم رغم طبخ جارتك الشهي، تلك التي تطبخ لك كل يوم نتفة من قلبها وتضعها في رغيف، أنت كنت بلا قضية والآن أصبح لديك قضية، اصعد فوقها وسامحه وافتح كفك للعابرين.

ألم يخبروك أنك تهت عن الوعي ذات يوم، وحين مددت يدك بعدما أفقت لم تجد سوى يد جلادك، هكذا قالوا: أنهضك ورش جردل الماء البارد عليك بنفسه!

ألا يكفيك الآن أنك صرت تقابل الرجل الذي كانت كل تهمته أنه أطلق اسم بن لادن على مولوده، عندما اكتشفوا أخيراً أن علاقته بتنظيم القاعدة ليست سوى القعدة التي يقعدها مع أصحابه أمام داره يتحدثون في فضل الزعتر والزيت على اللبنة الحامضة، أصبحت تقابله عند محله يبيع التوت والرمان وهو يغني من جديد أغاني صباح فخري بنشوة متهتكة مع أن صباح فخري نفسه فقيه بدرجة مطرب لا يصلح للغناء غالباً سوى في حلقات الذكر، كان يغني بعد تعذيبه، كان يقاوم به، إذ إنه لا يعرف شيئاً سواه.

لا تدخله القفص، حطمه واصنع من قضبانه أباجورات بهيئة أجساد نساء تعلقها على الحائط بجنون يليق بك، قفصه حوله برقبة معوجة وسيف مكسور يكفيه، ثم ألا تلاحظ أن هذه أول زيارة يأتي إليك فيها بحذاء بكعب

عادي متخلياً عن كعبه المدبب، هذه بادرة أمل وفأل جيد، إنه ضبع يا مطاع، لا تواجهه مباشرة، الضبع يكسب حال المواجهة المباشرة لأنه لا يستطيع بسبب عظمة طولية في رقبته أن يلويها لينظر خلفه أو جانبه، لذا إذا أحببت أن تربحه عليك أن تدور حوله لا أن تصارعه وجهاً لوجه، در حوله يا مطاع حتى تكسبه، در حول خياراتك أنت وسامحه، ثم إن الضبع معروف عنه أنه لا يأكل سوى الجيف المتبقية من غيره وجلادك كان يأكل نساءً مع آخرين أو ما تبقى منهم.

لا تستسلم لإغواء زوجته إن حاولت، مهما أبدت أمامك عدم اكتراث بأي شيء حتى باغتصابها أمام عينيه، هذا لن يصب في حصالتك، أنت رفضت أن تدخل بيت العاهرات بعد خروجك من القبو، كنت تبحث عن قبو لتفريغ شحنتك، كنت تريد أن تختبر عنّتك لا رجولتك لكنك لم تستطع الدخول عند واحدة لأن فيلليني أخبرك أن العاهرة تأخذ جزءاً من روحك لا من جسدك، يجب أن تسترد روحك لتسترد جسدك.

أعرف أنك تخترع له أشياء زائفة لتسامحه، تبحث له عن حسنة في كومة حصى، صورته لا تفارق صحوك ومنامك، لكن لا تنس أنه ليس من ابتدع هذا، لو أحصينا صور الرئيس المنتصبة في الشوارع وتماثيله القائمة فوق الهضاب لوجدناها أكثر عدداً من البشر، لكنه هو من فكر في الصور والتماثيل وسجد لها ليسجد الجميع خلفه، واحد غيره اخترع لقب السيد الرئيس بدلاً من الرئيس، وتولى هو عقاب الذي سولت له نفسه أن ينسى.

يرقد أمامك الآن، تكاد تسأله: لو فكرت أن تعود مرة واحدة عن تعذيبي لسامحتك بلا تردد، لو رمشت عيناك مرة، لو توقفت لتفكر في طريقة أخف، لو أشرت عليهم أن ارموه في قاع القبو وانسوه، لو قلت لهم إن الليلة عيد الأضحى وضحيت بي لسامحتك!

لا تتردد يا مطاع، ألمك حاضر بعد نفاذ الطعنة وبعد التئام الكسر في روحك وفي ضلوعك، لكن عليك أن تتناساه، لا تتحين صدى صوته من

بعيد، وعد لموسيقى نينوروتا، ليس عليك سوى تجاهل الصوت وصداه وأن تتعبد في موسيقاك.

صدقني، هذا الرجل ربما كان طيباً وأنت لا تدري، قال لك إنه عندما وضعك في الثلاجة إنما وضعك في الأعراف إلى أن يتأكد من تهمتك، وطلب منك معاونوه في النهاية ومن غيرك طلباً بسيطاً: أن تكونوا عملاء جيدين لهم وعيوناً طيبة على الآخرين.

يبدو أنني سائر في طريق واحد، أن أسامحه ومرة واحدة بلا تردد، هذا ليس خياري في الحقيقة، ويمكن لك أن تقول إنه الخيار صفر، وهو خيار لا يفضى إلى شيء مريح، لكنني الآن أفكر في جارتي وهذا دليل على أنني اخترت التسامح حلاً، أعرف أنني ألعب بالضمائر وأتحدث بكل ضمائر المخاطب والغائب لأنني أوقن وأبصم أن تعذيب واحد يعني أننا عذبنا جميعاً، وأن تغيير الضمائر إنما يشير إلى أننا صوت واحد.

لكن يجب عليك ألا تنسى شيئاً طالما لم تحسم أمرك، لا بد أن تعزل نفسك عن ماضيك وأنت تعالجه، عن ماضيكما معاً، لا تكن مثل الطبيب الذي حقنك وأعطاك أقراص الهلوسة لتعترف بأي شيء رغم أنه كان أستاذك ذات يوم، وإن كان ولا بد فلتخترع حقنة ضد الضلال لتعطيها له.

اتركه يمضي إلى حال سبيله، يبحث عن معالج آخر، لا تفكر في عنّته بل فكر في عنّتك أنت، منذ خرجت من القبو وأنت مثل مخدة قديمة لا تأتي بالنعاس ولا تريح الرأس، تخلص من عنّتك لتتخلص منه.

اصنع أنت الفيلم بدلاً مني. كان فيلليني ينصحك ويقول لك: اصنع من نفس القصة فيلماً مختلفاً على مقاس روحك أنت لا على مقاس الآخرين، لا تصنع فيلماً آخر لتوم وجيري تظل تلاحقه فيه طوال عمرك.. صدقني لن يضحك المشاهدون، بل ربما هو من سيضحك في نهاية الأمر.

اصنع فيلماً جديداً تتصالح فيه أنت وأبوك على جارتك، لم تتحمل

أنت دموعه المكتومة ولم يتحمل هو نزف قلبك، ولأن الطبيعة رحيمة بالآباء العاشقين وقع هو في حضن امرأة وحيدة كانت تطعم كل القطط الشاردة في الشوارع، وعندما ماتت بكى عليها أبوك وراح يطعم قططها كل ليلة تحية لروحها ويكفكف دمعه، وعندما مات أبوك بكت عليه وعلى المرأة كل قطط المدينة.

عد لجارتك التي صنعتّ من حضنها فراشاً، تركت ثدييها يكبران حتى تندس فيهما كثدي أمٍ لا كثدي عاشقة، منذ نشلوك من عالمها لم تلبس حمالة صدر واحدة، تركتهما للأرض، للأسفل لا للأمام، للهواء الذي قد يصلك، تركتهما يتهدلان حتى تجد مخدعاً ليناً حين تعود، وفتحت لك دهاليزها الرطبة والساخنة، حشرتك فيها لتنام بعمق، لتصحو ناسياً تماماً ما ألمَّ بك، لتملأ رئتيك برائحتها، لتمسح بها رائحة القبو.

عد لجارتك التي تداويك دون أن تحاسبك، إنها لا تفكر في أصابعك التي داوتها يوماً، بل تفكر معك بأصابعها، عندما تهل عليها تبدأ في تشغيل أوركسترا الحواس، لا توفر آلة، اللمس الخفيف، اللمس، أن تتكور في حضنك كقطة لا تخجل من الترتيبات الوقحة، تكلم كل عضلة فيك وعظمة بإصبع كي ينتفض إصبعك لتشفى، كي يصحو العازف فيك ويشهر آلته، هي لا تفكر في نفسها، هي تفكر بك، أن تستعيد نفسك لتستعيدها، أحياناً تلبس لك ملابس فضفاضة واسعة كأنها ستخبئك فيها من كل مكروه.

أصبحت خجولاً يا مطاع، لا تستطيع أن تنظر في عيني جارتك منذ عدت، لا تسترق النظر بطرف عين إلى ملابسها الداخلية المعلقة على حبل في الصالة كعادتك، تغمض عينيك تكز عليها كأنك تقتل ألماً بداخلها، وهي لا تنام قبل أن تأتي، وحين تتأخر ستجدها قد غفت تحت ملحفتك، اندست كما خلقتها الطبيعة، ليس عليها سوى غلالة عشقك، لتقترب منها بقوة، لتقتل الوغد الذي ينام بينكما وتقتلها.

هذا الرجل لم يعذبك في جسدك، لكنه عذبك في جسد حبيبتك، أراد أن ينزع منك الروح لتكون آلة صماء، لا تستطيع أن تدس أصابعك أو تشم رائحة ما بين النهرين أو ما بين القباب أو تعرف طعم القبلة، كي لا تهمس بصوت محب مرة وداعر مرة أخرى، لو استعدت هذا الصوت أو طعم الأصابع ستسامحه قبل أن تقوم من مقامك دون تردد.

أنت لا تستطيع أن تلمس جسدها، هي لا تفهم لكن الحقير يفهم، قال لك: يجب أن أُشفى لتُشفى، كنت في القبو تخشى أن يلامس أحد جسدك ومن ساعتها وأنت مرعوب أن تلمس أحداً حتى حبيبتك، هذا الوغد الذي ستسامحه كان يقول لهم: اضربوه حتى يظل هادئاً بعد أن يخرج.

أنت لا تستطيع أن تفعل كل شيء في الحياة، لكن العاشق لا يعرف اليأس، حين تنتصر على عنتك وهو عنين سوف تشعر أنك انتصرت عليه فعلاً وسوف تسامحه من قعر القلب، لم يعد هناك ما تخشاه، صوتك ذو الطبقة الواحدة ليس عورة في أحضانها، ستتكفل هي بالأصوات العالية، الحلم الوحيد في السجن كان حلماً جنسياً معها. إذاً اقترب وقشر عنها ملابسها المدهونة عليها، قشرها بأسنانك، واجعل لسانك ينطق بدل صوتك، كن كلص يتسلل إلى جسد امرأة وجدها نائمة مغوية فترك المسروق وغشاها، في الحب لصوصية فاتنة يا مطاع، واعلم أن الحضن هو نافذة الجنة وبوابة النار حتى ولو لم يذكر في أحاديث البخاري والترمذي.

قلبك يوشك أن يغادر قفص الصدر، ضعه في قلبها، اجعلها تنام عليه وترخي رأسها ليهدأ ويعود، قلبك الذي ينخلع لسماع زمارة المطافيْ سوف يستكين في نبضاتها، أنت خائف منها راغب عنها وهي بصبر جبل خائفة عليك راغبة فيك.

أنت خائف أن تقترب منها حتى لا تصدق عنتك، حتى لا تصير عقدة جديدة تحتاج أن تتخلص منها هي الأخرى، وقد تفكر ساعتها في التخلص من جارتك نفسها لو وجدت نفسك عاطلاً عن مطارحتها الغرام، وحتى لو

قتلتها لن تستطيع أن تقتل شهوتك فيها، ساعتها ستقتل نفسك. أنت خائف أن تتعذب من جديد بشهوة أخرى، لا، لا ينبغي أن تصدق هذا الوغد، إنه يريدك نسخة منه كما كنتَ في القبو وأنت خارجه.

تقدم يا رجل، لا تحتاج إلى حاوٍ، أنت الحاوي، لا يجب أن يحرمك الماضي وهذا الوغد من الشهد، ربما لم تكن عينك مستعدة لرؤيتها مرة أخرى، كان فيلليني يقول لك: أنت مثل قس يسأل صبية لم تغادرهم البراءة بعد ولم تخدشهم الشهوة: هل حدث أن رأيت أو تخيلت امرأة عارية تنتظرك؟ يجب أن تتعلم الحب مجدداً، هذه المرأة كانت غارقة بشواشيها في غرامك، كانت تلاعبك، لم تكن تريد الانتحار، كانت تريد أن تحقن الحب في الشهوة، ولديها مزيد، مفرطة في انحناءاتها ومترفة أيضاً، تتمشى أمامك الآن كحورية تُنطق الحجر. للجسد لغة وأبواق وشامات، ليس لكل امرأة شامة، ليست كل شامة جميلة، كل زاوية من زوايا كنزها تناديك، كأنها قطعت قروناً من العطش بك، وشيء ما سينفجر بداخلك، دعه يتفجر، عندما تبتعد عنك امرأة تحبها ترى جيداً، تكاد تصرخ: عودي وخبئيني في دهليزك.

نعم، يجب أن أقترب منها وأدخلها لأدخل دنيتي الجديدة، يجب أن أباغتها لأباغت نفسي، الآن يمكن أن أضع عصابة على عينيها حتى أستطيع أن أتخلص من كابوسي الذي يقف بيني وبينها، تذكر أنها تطبخ لك كأنها تنام معك، الطعام والشهوة عندها متلازمان. إذاً باغتها كعاصفة، العاصفة لا ترسل إشارات ولا تطلق صفارات إنذار، باغتها واعصب عينيها ثم احضنها من خلفها برفق ثم بقوة واحملها بغتة بين ذراعيك إلى مخدعكما. عندما تحمل امرأة بين ذراعيك ستغفر لك ما تقدم وما تأخر. اعصبها.. احضنها.. احملها، وحين تحطها برفقٍ ونزق العاشقين تشعر أنك محموم ولا تستطيع، ستسمعها تقول بصوت مشروخ متهدل وهي تلف ذراعين من خلفها حول عنقك: أنقذتني من الموت وحدي، لا تتركني للحياة وحدي.

لا بد أن تقتل الآن من ينام بينك وبينها، وتذكَّر جملته حين يقول: على المرء أن يقتل حتى لا يُقْتل، تذكرها واقلبها، واقتل حبيبتك.

لا بأس إذاً، ربما أسامح في التعذيب، لكنني لن أسامح في العشق.

-١٢-

قررت أن أسامحه.

بوغتُّ بجملتها، وقعت فوق رأسي، لا أعلم إن كانت ملامحي قد أوصلت المعنى لها أم لا، فمنذ غيروا تفاصيل وجهي وهو يخونني، لا يبدي ما أقصده وربما يأتي بعكسه.

بوغتُّ رغم أن الاحتمالات كلها مغروسة بحوافرها في حلقي، بالسيناريو المعد لكل واحد، يتراقص كأفعى أمام عينيَّ ليل نهار، ربما لأنني في قرارة نفسي تمنيت لحظة أن تتكفل هي بما لم أستطع القيام به. لكن حتى لو حدث، هل يبرد ذلك ناري؟ هل يطفئ الجمرة التي حرقت نصف قلبي واستوطنت الآخر؟

هذه المرة جاءت وحدها، من دونه، ربما هذا ما ضاعف من هلاوسي، ماذا تريد هذه المرأة وما اللعبة التي تفكر فيها حقيقة؟ صرت أصدق كل شيء وأنكره أيضاً، كل شيء صار حقاً وباطلاً، ومن الممكن أن يظهر فجأة شيء جديد على المسرح يفرض نفسه، يحتل الشاشة ويلجم عقول المشاهدين.

هل صدقتني؟

قالتها وهي تتمشى بإيقاع ناعم في المكتب، خطوة ثم تؤدة، خطوة ثم لفتة وهكذا، تطالع اللوحات المعلقة وتطيل، تمسد بيد على جانب فخذها وتنقر بأصابعها عليه، توقفت عند جملة فيلليني الناطقة بالحلم وتمتمت، مالت برقبتها لليسار خفيفاً تعبث في حقيبتها، أخرجت علبتها

وأشعلت سيجارة ثم عادت إلى كرسي في مواجهتي، وأنا أنتظر تدفق الأنباء بابتسامة خفيفة على وجهي، أو هكذا أتخيلني أيضاً.

ضحكة هستيرية اشتعلت في المكان، لا بد أنها شربت قبل أن تجيء وإن كان احمرار وجهها لم يتغير كثيراً، شاركتها بالضحك أيضاً وإن لم يكن على نفس الوتيرة، ثم كما هبت فجأة هبطت فجأة وبصوت واضح مثل قاضٍ في محكمة وبجمر في العيون كذئبة فقدت ابنها:

هل تريد أن تعرف لماذا؟ قلت لك إن هذا الوغد اعتلاني عشرين عاماً وأكثر دون إرادتي ولعلك تتذكر، في كل مرة اعتلى بطني كنت أراه ببدلته الميري مهما كان عارياً، أراه بنجومه وسيوفه، كنت أشعر أن كل سلطات العالم وجبروته جاثمة فوق صدري، انتظرت - بكل ما تتخيله من صبر- اليوم الذي يخرج فيه للمعاش لأنام معه بإرادتي، برضاي، الرضا يعني جني العسل والقسر يعني رغيفاً بالحصرم وأنك لن تجد سوى حجر يرد عليك، انتظرت لأنام معه دون سلطته.

نحن النساء لسنا كالرجال، الصبر حيلتنا الأثيرة في انتظار المسرات والأحزان، والأحضان أيضاً، يغيب الرجل قسراً، أو يغيب ليلهو ويعبث ونحن ننتظره، إنها لعبتنا في انتظاره وترويضه، وعشقه أيضاً، نلعبها بغرام مع الأب والحبيب والطفل، كلكم أطفال إلا من غاب طفله، ساعتها يتحول إلى وحش لا يجدي معه صبر أيوب، لكنني صبرت، دعك من أنني كنت مرغمة أو أنني شاركت في اللعبة بالتسليم بالأمر، بالرضوخ أو حتى بالتواطؤ على نفسي قبل غيري، وأقسمت أن آخذه يوم خروجه على المعاش ولو لمرة أخيرة، وعندما جاء وجهه يومها مسحوقاً كذئب مهزوم فعلت له ما لم أفعله في حياتي، كان مؤشر ميزان صبري يدق كساعة كاهن قديم، سحبته ليعتليني بمزاجي، بنذري القديم لنفسي، وهو عارٍ، عارٍ من كل طغيانه، من كل قميص أو رائحة لها علاقة بالماضي، حممته بنفسي وهو مندهش مذهول، لكنه كان ذبيحاً مستسلماً، ثم كأي عاشقة ولهانة سحبتُ يده إلى مخدعنا.

اصبر، لا تتعجلني ولا تنظر إليَّ هكذا أيها المعالج، تفهمون في الطب والعلاج لكنكم لا تفهمون الأنثى، افعل ما شئت لكن حاذر وجع الأنثى، أعطيت له فرصة الإفراج عنه بقفزة واحدة، عفواً بحضن واحد، نعم، قلت أسامحه على عشرين عاماً مضت وعشرين فوقها من عندي شريطة أن يرقد مرة واحدة فوقي كإنسان، منحته الفرصة وأعطيتها لنفسي أيضاً، الحب مقابل السماح، هل تصدق كل الكلام الذي نقوله عن الحب في الأفلام والأغاني! الحب يعني شيئاً واحداً: أنك قادر على التسامح مهما كان الغضب، إن لم يفعل ذلك فهو كذب، لا تصدقه.

أخرجتُ الشموع من مخابئها وخشب الصندل من جرابه، وسحبت روحي القديمة من قبوها، هل تعرف القبو؟ لو عرفته لعرفت معنى القهر وربما عرفت معنى العشق.

القبو يفتت أرواح البشر، لكنه يحفظ للجماد أسراره، أليس كذلك؟

أكتشف أنني عقدت أصابعي ببعضها بعضاً ونصفي العلوي مندفع للأمام فأعتدل في جلستي وأعطي وجهي معنى كيفما اتفق.

قلت لك اصبر، كنت واحدة جديدة، كأنه يوم عرسي، كأنني أعيد ترتيبه حسب ما حلمت به يا صاحب الأحلام، لم أكن لأغفر له ما فعل، فعلت ذلك كي أتركه لآثامه وأمضي أنا سعيدة، لا شيء يقهر امرأة عاشت مع رجل ساعة أو عمراً قدر اكتشافها أنه لم يكن يحبها، آلاف النساء يسامحن رجالهن مهما زلت أقدامهم، مهما زادت نزواتهم طالما وثقن بحبهم لهن، لكنه ضيع الفرصة الأخيرة وربما اليتيمة، كان وغداً أكثر من كل السنوات التي صعدني فيها، كسر أحلامي الشريرة التي انتظرتها سنوات طويلة لم يستلقِ كإنسان بل ارتمى كذكر، رفض ديكه أن يؤذن أو حتى يصيح، ديكه الكذاب الذي أذن في كل الجحور وعلى كل السواحل والقباب، دلكته ودعكته كأنثى ماجنة، كامرأة أنهكتها الصبابة وغشيها محن نصف النساء، لكن من تعود على الأذان بالكذب لا يمكن أن يؤذن في محراب أو على

صدر امرأة مع أن الاستثناء قد يؤكد القاعدة، وأصحاب الخطايا لا يعدمون أن يرووا عطش كلب في يوم قائظ، ومدمنو النساء يصيبهم الملل أحياناً من العبث ويتمنون ليلة واحدة بيضاء، لا أعرف إن كنت متزوجاً أم لا؟ لكن الرجال مهما جعلوا النساء تجارتهم يجيء يوم يعرفون أنها تجارة غير مربحة، كاسدة، يعافونها ويغتسلون في بحر ثم يهجعون في خزانة واحدة، وربما تعود ربما لعادتها فيعودون مرة أخرى للعبث.

أنا أحدثك كأنني أعرفك من زمن طويل، لا أعرف ما الذي جرفني من أول لحظة كي أحكي لك حكايتي دون مواربة كأنك صديقي، وأنت كطبيب بالطبع في منزلة الصديق لكل مريض، وأنا أيضاً مريضة.

استأذنت أن تدخن وتعود، راحت مرة أخرى عند جملة فيلليني وتوقفت، راحت عند جملته الأخرى التي أوصاني أن أعلقها وفعلت، أتخيل الآن أنني فعلاً رأيت هذه المرأة من قبل، لكنني لا أتذكر بالضبط متى ولا كيف، ربما تنام في ذلك الجزء العميق من دماغي الذي يحتفظ بالنساء ولا يريد الإفراج عنهن، لم أعثر عليه بعد، أنا أحاول طيلة شهور وأعدو خلف فيلليني لأتذكر الماضي، لا لأعيش فيه، ربما أحببتها في وقت مضى أو تعرفت عليها ونشأت بيننا علاقة، لكن كيف بدأت الحكاية وكيف انتهت؟ الحب قد يبدأ عندما تصطدم باطن كفك فجأة بفخذها وأنتما داخلان معاً إلى مطعم أو مقهى، ربما عند نزولكما من باص، أو بجونلتها البيج كما كان يقول هو، معلمي الأول، من لمسة عفوية، وربما اصطدم فخذها عمداً بيدي أو سهواً ورمى بي خدراً لذيذاً فتهت للحظة، ثم حين رفعت رأسي بالاعتذار كان ظل ابتسامة ما زال سائحاً على وجهها، وربما أومأتْ أنها تفهمت السبب فأومأتَ أنت أيضاً برأسك وأفسحتَ لها الطريق، ثم انتهزت الفرصة ليخرج صوتك، لا تعرف بالطبع هل هو الصوت الحالي أم القديم، على أية حال المهم أنك اعتذرت بلطف وسحبت طرف الكلام فسألتها هل تأتي إلى هذا المكان دائماً؟ ربما لم يحدث هذا بالضبط لكن هناك احتمال أن يدك اصطدمت بفخذها وأنت تتهيأ للجلوس على طاولتك، وحين لم تجد هي طاولة دعوتها

للجلوس ثم استدركت الحكاية وأشرت إليها، تركت لها الطاولة بكاملها فلربما تحرجتْ أن تجلس على طاولة واحدة في مكان عام مع واحد لا تعرفه، لكنها بخجل خفيف وجرأة تملكها النساء دائماً استبقتك وجلست معك إلى أن تفرغ طاولة أخرى، ثم حين فرغت أخرى لم تفكر أنت ولا هي فيها أساساً، كانت الكهرباء قد سرت بينكما واشتعلت المواقد، وجورج وسوف يغني: الهوى سلطان، الصداقة تحتاج أعمدة لتتأسس عليها أما الغرام فيحدث بغتة من لقطة أو التفاتة، وربما كانت ممتلئة بالوعود التي جعلتك تلتصق في مقعدك وربما كنت أنت واعداً أيضاً.

تصنع الصدفة ما لا يصنعه الخزاف، القصص التي تتم بلا ترتيب تشحن الأجساد برعشة لها وخزة الحب الأول وربما الحب الأخير الذي نعتقد أننا دائماً ننتظره، بل نوقن لحظتها أنه كعصا موسى أكل كل قصص الحب القديمة وأخفاها في جوفه، وقد نؤكد لأنفسنا أنه الحب الذي انتظرناه بعد ما أيقنّا طويلاً أن الحب لن يطرق بابنا مرة أخرى فيجيء بلسعة تعيد الروح صبية شابة يطير فستانها في الفراغ، لا تعبأ به، بالكاد تمد يداً متثاقلة لتعيد طرفه إلى مكانه.

ربما وقعتُ في حبها، طالما صار الحب أحد التوقعات فأنا أميل إلى هذا الفرض، كل واحد منا يبحث عن الحب طيلة حياته.

ربما يكون كل ذلك قد حدث، خاصة أن هذه امرأة تملك مؤخرة لا يمكن أن تخطئها العين أو تتفاداها الرغبة.

لكنني وإن كنت أملك قرائن على أنني قابلتها، لكنني لا أملك دليلاً واحداً، يدق قلبي أحياناً عند رؤيتها لكن ذلك أمر عابر لا يمكن التعويل عليه، ربما أكون من الرجال الذين يقعون سريعاً في الحب وأقفز بخفة إلى النتائج، صحيح أننا لسنا في محكمة تحكم بالأدلة والقرائن، لكنني لا يمكنني إنكار ذلك أو تأييده، قد أحتاج إلى ضربة أخرى على رأسي تعيد إليَّ الجزء المفقود من ذكرياتي.

دعك من هذا الآن، وتذكر الشائعات التي حامت حولها أو حول واحدة تشبهها، عن زوجة ضابط كبير خانها زوجها فانتقمت منه في كل من يعرف ولا يعرف، أوجعها ذلك وحرق قلبها فانتقمت منه في جسدها، صحيح أنها لم يكن فيها مكان لجروح أخرى حسب ما حكته عن علاقتهما، لكن غباء الرجل وطغيان فحولته ورجولته شيء والخيانة شيء آخر، قد تعيش امرأة مع رجل ينام معها كأنه يغتصبها، تعيش مكتومة مكلومة، عيشة الموتُ أفضل منها، لكنها حين تعرف أن زوجها يخونها مع كل فستان أو بنطال يراه، تخونه بسعادة مع طوب الأرض، لا تفعل ذلك مقابل خيانته وإنما تفعله جراء اغتصابها سنوات، تفتح لها الخيانة كل الجروح فتنتقم بالجملة.

نعم هي حكت لك من قبل حكاية صاحبتها الشاعرة التي كانت متزوجة من عضو الحزب الحاكم، والتي كانت تقام لها الندوات التي تدبج فيها قصيدة في حب الوطن ومائة قصيدة في تقديس القائد، يحضرها جمهور غفير لا يحلم به أكبر الشعراء، وبعد فترة علمت أن زوجها الخالد نام مع معظم النساء اللواتي حضرن ندواتها تقريباً، وما أكد لها الأمر التصفيق الحاد الذي كانت تحظى به.

كان زوجها يأمر بتصوير الندوات كي تستعيد أمجادها دائماً، لكنه كان يبحث عن أمجاده هو، يتفحص الوجوه في الشرائط وجهاً وجهاً ويختار غنيمته كل مرة، ما فوت ندوة ولا فوت مرة، لذا انتقمت منه بأن نامت مع أزواج كل الذين خانتهم زوجاتهم، ثم انتقلت لحقلها الواسع، لم تترك واحداً له علاقة بالوسط الذي تبدع فيه إلا وأكملت إبداعها، لم تكن تنام مع أحد، كانت تنهبه نهباً، هكذا حكت، انتقمت منه على البارد رغم قسوتها في الفعل، الثأر وجبة حارة لا تؤكل إلا على البارد، وأنت بالقطع كنت أحد الذين انتقمت لهم مع أن لا زوجة لك، لكنك كنت تحضر الندوات وتتحدث عن حبيبك فيلليني وحولك صديقات.

ثم إن هناك حكاية الضابط الذي شاهد سائقه يطوف بسيارته في المدينة في يوم راحته وحين استوقفه لسؤاله عن وجهته قال له إنه ذاهب

عنده إلى المنزل الثاني، هذا السائق كان يذهب فقط لبيت العشيقة، وعندما استفسر منه عن السبب أخبره أن نائبه هناك، وقعت الواقعة واشتبك الغريمان، وكانت حكاية لطيفة طافت المدينة في الحمامات تحت الدش بالطبع، لكنها وصلت كل أذن تلصصت أو لم تفعل.

ربما جاءت عليها لحظة انتقمت فيها مثل صديقتها على طريقتها، لكنها لم تفعل ذلك علناً لوجوده في موقعه الكبير وتركته نهباً للشائعات، وقد تكون فعلت ذلك دون إشاعات لتنتقم لجسدها وكرامتها وصادفتك في الطريق.

لكن الاحتمال الأرجح، أنك حين خرجت من القبو، كنت تسير هائماً في الطرقات بلا أب أو جارة، أبوك صعد إلى السماء بسبب الحب والقطط والدجاج، وجارتك تركتك للشوارع والمقاهي كي لا تشعر أن حضنها قبوٌ آخر، كنت تعسُّ في المقاهي، تذهب إلى مطعم ومقهى ترتاده زوجات الضباط، عسى أن يصادف أذنك صوتُ يشبه صوت جلادك، كنت تتسمَّع كل كلمة بأربع آذان، صادفتها هناك، أنت تجلس على طاولة طوال اليوم طلباً لصيدك، وهي مثلك تقضي جل وقتها كي تخرج من قبوها، كنت بوجه مغدور وروح مكسورة، رأت فيك ما افتقدته عند وغدها، وأنت كنت تتمنى حضناً جديداً بوسع العالم، مرفأ تربط عنده سفينتك المثقوبة من كل النواحي، رأيتها بعينيها الواسعتين، لكنها كانت محجبة نصف حجاب، ربما خلعته الآن بعد أن سقط الوغد من رأسه عند قدميها، لكن لو حدث ذلك لتذكرتها جيداً، كان ذلك بعد خروجك، المشكلة أنك حصرت ذاكرتك في شهور معدودة وهي تواطأت معك على ذلك، لا تتذكر إن كنت قد تنعَّمت في حضنها وارتاحت في حضنك، وربما هربت منها لأن عيونها واسعة؛ والعيون الواسعة تجلب السهد والأسى وأنت لم تكن في حاجة إلى مزيد.

لعل هذا الوغد كان يعاملها كإحدى عاهراته، من فرط سياحته بين

الأجساد بأنف الذئب لا روح البشر، يتعامل بإصبع واحدة وينسى كل أصابعه، لا يعرف أن لها وظائف أخرى غير التعذيب، لا يعرف أن العابر على ماخور يضفي على عاهرته شيئاً من التقدير، يراها بعين إله، حتى لا تجعله مغفلاً في عينه، وهذا ما حدث حين فتحت واحدة خزانتها له ولزملائه الأصغر منه درجات فسقط متدحرجاً من علٍ حتى أسفل درجة.

أنت نفسك كنت تنظر إليها أحياناً كطريدة، ولولا أنك انشغلت عنها بحلمك لاقتنصتها، كنت تتخيلها واقفة وقد منحتك ظهرها، وجهها في وجهه وهو مسجى على الكنبة، كنت تزأر فيزأر هو بينما هي في الوسط بينكما تلون صرخاتها وتبدل طبقاتها، تهتزان فيترنح وتزأر الجدران في معركتكم، كانت تقترب برأسها من رأسه وأصوات جديدة تحل محل الأصوات القديمة، ليمتلئ رأسه بكل الطبقات، لم تكن رغبة عابرة، بل دودة لعبت في مخك لشهور، كنت تعود من العيادة إلى البيت على قدميك تتقيأ شيطانك في الطرقات، لو لمستها الآن وكانت من قبل حبيبتك فقد هددت الكعبة، وإن كانت قد انتقمت منه بك وبغيرك فلا حاجة لك بها الآن، ثم ماذا لو كانت قد وقعت في حبك ثم اكتشفت بعدما سلمتك مفاتيح الدهليز أنك كنت أحد ضحاياه، ماذا كنت ستفعل؟ كانت ستراك وغداً أكثر منه، كنت ستتلقى التعذيب مرة ثانية من ضميرك، من نظراتها، وأنت لست في حاجة إلى العذاب في الحياة مرتين، وهي تقترب الآن منك تنفث دخان سيجارتها السادسة:

صدقني كنت سأسامحه كامرأة لو أخذته بريئاً لمرة واحدة يوم خرج على المعاش، لو ضمني ودفن رأسي في صدره، علق رجله على ظهري وغاب، لو غفا برأسه بين ثدييَّ ونام.

تقوم مرة أخرى تدور حولي وهي تنظر إليَّ، ثم تقف قبالتي:

له شيء واحد عندي، كان يحمل طفلته المصابة بشلل الأطفال ولم تفلح كل سلطاته في شفائها، يغلق عليهما الباب يلاعبها ويبكي، لم يرَ

أحد دموعه مرة، حين حاول بعضهم تفجير مدرستها كان يجري في الشوارع كمجنون حتى وصلها، لم تردعه جملة قالها أحدهم في الإذاعات الأجنبية: كنا ننتقم من أطفالهم بسبب ما فعلوه بأبنائنا.

لكنني أشهدك الآن أنني سأسامحه أمامك لسبب آخر لم أعرفه إلا أمس، أنت تعرف أن القنابل تنفجر في الحال لكن الأسرار تتأخر: في اليوم الذي خرج فيه للمعاش وقبل أن يعرف القرار بدقائق كان قد علق إحدى النساء في مروحة السقف، هي طريقة استوردوها من السودان بدل أن يستوردوا القمح، يعلقون المشتبه فيه في مروحة السقف ثم يتم تشغيلها لتدور به الأرض والسماء ويطير عقله من رأسه وهو معلق تحت السقف، انتظرته المرأة وهو يصيح ويزأر حتى جاء تحتها مباشرة يساومها ويهددها، وهي ألقت إليه بالرد فوراً: بالت فوق رأسه، بالت مكان كل النساء وكل المعذبين وتركت رائحتها.

لم أجد شيئاً أرد به، وأتمنى أن يكون وجهي قد صدق وعده هذه المرة، اقتربت بوجهها أكثر:

- أخذت لي حقي وحق كل النساء، لذا سأتركه لك وأمضي راضية.

لا أعرف هل أنا فوق المكتب أم تحته، أنقذني جرس الباب الذي دق متتابعاً، قامت متجهة إليه وهي تقول:

- لا بد أنه مأمون.

مأمون! كنت قد لمحت ظلاً لشخص أوصلها للباب عند حضورها لكنني لم أستطع التركيز عليه بسبب انشغالي بها.

- مأمون؟

جاءت به، كان يقف في الصالة قبالة بابي المفتوح، قالت:

سأمضي الآن وتصرف كما تحب معه، لم تعد لي حاجة به.

أظنها قالت ذلك، كانت قدماي مُسمّرتين في الأرض وفمي مفتوحاً بالتأكيد وهي تعيد جملتها بينما أنا أنظر إلى مأمون بكل جوارحي الحية والميتة.

مرتعشاً ككتكوت مبلول في يوم بارد، حاولت أن ألملم نفسي، أشارت إليه أن يبتعد، ثم مالت عليَّ وربما رأت في وجهي ما لم أره، اقتربت أكثر، وضعت يدها على كتفي:

- هل تعرضت للتعذيب من قبل؟

لا يا سيدتي.

تتفرس وجهي، وبصوت أكثر إصراراً:

- هل تعرضت للتعذيب من قبل؟

لا يا سيدتي، تعرضت للعشق.

-١٣-

أخيراً يا مأمون، أخيراً ظهرت، انتظرتك طيلة السنين، ربما لو ظهرتَ مبكراً لما مشيتُ بظهر محني وروح مقهورة كل هذا الوقت، لما احتجت إلى الجلاد ولا إلى زوجته، وربما قفلتُ جرحي منذ البداية ومضيت في طريقي.

ليست مفاجأة، بل إعصار، تسونامي لا يميت، يقذف بك حياً بعد أن سحبك التيار إلى قاعه وأغمضت عينيك بالهلاك.

كنت أنظر إليه لحظة وأحدق إلى نقطة بعيدة في الغرفة لحظة أخرى، لا أعرف ماذا سيحدث؟ ما الذي يمكن أن أقوله، ربما ليس هو، بل بالتأكيد هو، يجب أن تتعامل معه على أنه هو حتى يمر الاعتقاد من عينك إلى عينه.

رحنا ننظر أحدنا إلى الآخر بصمت كأنه قطعة من الجحيم على الأقل، لا يعرف أحدنا من سينطق أولاً حتى تبدأ المحاكمة، متى تفتح المعركة فمها وينطلق الرصاص، والسيدة بوجه أصفر مشفوط انسحب عنه الدم، بفم متوتر يفتح ويقفل على وتيرة واحدة، تتبدل أسنانه من شفة إلى أخرى، وهو واقف كعمود في شارع جانبي، مصباحه على حاله بصرف النظر عن كون الوقت صيفاً أو شتاءً، ليلاً أو نهاراً، وأنا بعيون مفتوحة على آخرها كأنني كنت أعرف أنه سيظهر يوماً ما، بابتسامة الكهنة بعد أن استجاب الله مرة لتضرعاتهم، الحقيقة أنه لم يخطر ببالي أبداً أن أراه يوماً على مذبح الحكاية.

يظهر القتيل غالباً لكن أداة القتل دائماً تدفن، لكنني لا أخفي أنني سعيد وغير مرتبك، ربما مأخوذ.

تربكني الأشياء الصغيرة، ترفع ضغطي وتظهر عصبيتي، أما الكبيرة فصرت أبدو أمامها كأنني أصلب شخص في العالم، متجلداً ككرة ثلج في فضاء.

تصنع الصدفة ما لا يصنعه الخباز، الخباز يحتاج إلى النار لينضج ما صنعه بيديه، كي يرى ما تخيله واقعاً، بالصهد، بألوان الشرر، بالنفخ، بالانتظار، بالغناء، بالقلق، بالتمني، بالوعد، بالثقة، لكن الصدفة هي قطعة الحلوى المصنوعة بالحب، المخفوقة بمزاج غانية، هي الكريم شانتي، هي ما يحلم به العشاق والأطفال وأحياناً القتلة.

فكرت أن أندفع نحو الباب لأغلق مزلاجه بإحكام، لكنني قدرت إن فعلت ذلك أن أزيد فولت الجلسة وألا يتكلم، أن يعتقد أنه محاصر وأنني قد أفتك به فيصمت تماماً، وربما يهاجمني، أنا أحتاج بعض تعاطفه معي ويجب ألا أستثيره على أي نحو.

- ظننت أنني لن أراك أبدًا يا مأمون.

.. كان يجب ألا تراني، على الأقل ليس في هذه الحياة.

- لو ظهرت من قبل لوفّرت عليّ الوقت والألم.

.. دعك مما مضى، وفر على نفسك الأسئلة، لن يجيبك أحد، استغن عن الماضي دفعة واحدة، دعك منه وعش أيامك القادمة.

- فقط أريد أن أعرف.

.. السؤال سيودي بك إلى ألف سؤال، ستضيع وقتك بلا طائل ولن تحصد شيئاً، وحتى إن عرفت ستزداد ألماً وسوءاً.

أهرش رأسي وأبتسم في وجهه، أعرف أن ليس لديَّ شيء أمنحه له، وأعرف أيضاً أن من يطلب شيئاً مقابل لا شيء هو أفضل ضحية، لكنني جازفت:

لكنك أنت تعرف ولا تريد أن تخبرني، لا أريد أن أقفل الجرح على

أسئلته، أريد أن أنظفه من كوابيسه وأنساه، وحتى إن تذكرته فيما بعد سأتذكره كرماد الماضي.

المرأة التي بدت ضجِرة من الحوار بعد أن كانت متحفزة سحبت حقيبتها فجأة واتجهت ناحية الباب، بوجه ثلجي كأنها حرست الأسف أو الخديعة، ودعتني بنظرة مربتةً، بكلمات وداع خافتة باهتة، وهو بدا طويلاً في إثرها وجاكيت الجلد على جسده كأنه زي قومي لطائفة ما، تعاريجه عند انثناءات الكوع توحي أنه يرتديه منذ وقع أول انقلاب في مدينتنا، أو أنه دائماً يقود موتوسيكلاً فانثنت أكمامه عند المنتصف واستقرت، ورغم أنهما اتجها نحو الباب إلا أنني لم أحرك قدماً في إثرهما، فليذهب كما جاء، لم أكن أتخيل أنه سيظهر أو أن هناك أحداً اسمه مأمون من أصله وعليَّ أن أوطِّن نفسي أن أنساه، أو أتركه إلى حين يأتي وحده أو لا يأتي، كلامه قد يكون صحيحاً وقد يكون زائفاً، ومواجهة الأشياء الزائفة لا تعني من جانب آخر أنه ليست هناك حقيقة ولكن أين هي؟ وما حاجتي بها الآن؟

تبادلا الحديث بصوت منخفض عند الباب، فتحته ببطء وخرجت وهو فجأة أدار رأسه ناحيتي، أغلق الباب ومضى نحوي، بنظرة تتخطاني إلى أريكة المرضى.

باغته:

هل أنت من ستنام على الأريكة أم أنا؟

نحتاج إلى أريكتين ومعالجين آخرين لنا، أو نحتاج إلى مقعدين.

جلسنا في مواجهة بعضنا بعضاً، سألته إن كان يحب كوباً من الشاي قال إنه يفضل شراب المتة، كانت جاهزة تصنعها جارتي حبيبتي كل يوم وتعطيها لي قبل حضوري إلى العيادة، بسرعة أحضرتها، لم أشأ أن أنظر إليه من بعيد حتى لا يشعر أنني متحفِّز ضده، وضع الشفاط بتؤدة.في جانب فمه كمن يضع غليوناً وراح يسحب:

أعرف حكايتك، وصلت عندي بالصدفة، أخشى فقط أن أحكيها لك فتحكيها، ولولا أنني أعرف أنك مرعوب مثلي ولن تفتح فمك لما سمعت مني حرفاً، لكنني قبل أن أحكي حكايتك سأقص قصتي.

رحت أتشاغل بشرب المتة معه. أدير الكوب بين يدي كأنني أتدفأ أو ألعب.

كنت أريد أن أصبح ضابطاً، لكن أنت تعرف النهاية، النجوم والنسور والسيوف في بلادنا لأولاد الذوات وأولاد الكلب - قد يفلت البعض أمثالنا صدفة - منهم من يظل ابن ناس ومنهم من يتغير أو تبدله السلطة - كنت أرى أقراني وقد تغيَّروا، ينظرون إلينا كأنهم لم يعرفونا يوماً أو عرفونا ويريدون أن يروا صورهم الجديدة في عيوننا، كأننا من شعب وهم من الشعب الآخر، المشكلة أن أولاد الضباط هم الضباط الجدد وأبناء القضاة هم القضاة بالزور مثلهم حتى لو كانوا معاتيهَ، مع الوقت أصبحت هناك طبقة تكبر وتصنع سوراً حولها مرة بفعل الخوف ومرة بفعل اليقين بدونيتنا وعلوهم، الذين يسكنون في كومباوندات لها أسوار عالية قد تعتقد لوهلة أنهم يفعلون ذلك من قبيل التميز، وهذا صحيح لكنهم في قرارة أنفسهم خائفون يريدون سوراً يحميهم من هجوم الذين تم نهبهم، نهب نقودهم وأعمارهم، أما الذين يصدقون أنهم من طينة أخرى فيلبسون كعوباً عالية مدببة على رأسهم القضاة والضباط، الضابط الذي صفعني مرة قلت له بصوت غاضب:

- كان يمكن أن أكون مثلك.

- مثل من يابن ال...

اختبأتُ له مع غاضبين مثلي وبعض الخائفين الذين يريدون أن يجربوا خوفهم ليقتلوه، افتعلنا معه مشكلة ثم ضربناه، كان يمكن أن تمر الحكاية بعلقة كبيرة أو إيقاف لفترة قصيرة، لكننا إمعاناً في ذله وربما إحساسنا بقوتنا أو بجموح الغضب في تلك اللحظة أخذنا سلاحه، كي نجرده من

شرفه، أوسعناه ضرباً وبخخنا فقط في وجه العساكر الذين صاحبوه فهم من طينة تشبهنا، وإن صاروا في لحظة أخرى مثله، وقامت القيامة قبل موعدها بسنوات، ما حدث معك لا يساوي ربع ما حدث معنا، أجلسونا في الأعراف مثلك، لا أدخلونا السجن ولا تركونا للحياة، الفارق البسيط أن الأعراف في الحياة ليست كالأعراف في الآخرة، بروفة مكتملة لجهنم، لم يعترف أحد منا بشيء، فالذي أخفي السلاح من بيننا لا نعرفه، لم يعترف أحد على أحد، لم يصدقونا لكنهم وضعونا في الثلاجة طويلاً كي نبرد أكثر ونخاف أطول، في النهاية لجأوا إلى لعبتهم المعروفة، جندونا جميعاً كعملاء بعد خروجنا، وأنا قبلت فوراً أن أكون عميلاً، لا تستغرب وحتى لا أطيل عليك وتسألني عن الأسباب والنتائج، قبلت حيث لم أكن في موقع الفصال، لكنني رددت لهم الصاع صاعين، ما من شخص طلبوا مني معرفة معلومة عنه إلا أتيت بعكسها، ما من شخص طاردوه إلا حذرته، فقدت معنى الخوف، الخوف يموت بخوف أكبر منه.

يشعل سيجارة ويشفط بعمق: أنت لن تفتح فمك، أعرف ذلك، وإلا لما حكيت معك، أنت تريد أن تشفي غليلك، وأنا أريد أن أريح ضميري.

يا مطيع، انفد بجلدك، أحدهم مثلك قضى ثلاثة عشر عاماً في القبو، لا يعرف أحد تهمته ولا لماذا جاء، وحدهم يعرفون بالطبع وسرهم بينهم، رفض أن يصير واحداً من المآمين، حين ذهب إلى مقر عمله بعد إخراجه وجد نفسه مفصولاً لتغيبه طيلة هذه السنوات، كان عليه أن يتحصل على ورقة رسمية بالطبع ليعود إلى شغله، حين وجد أن الطريق مغلقة ومليئة بالسنين المدببة وافق، حينها حصل على الورقة الذهبية في الحال، كانت موجهة بالفعل إلى مقر عمله آمرة بالموافقة على عودته وتسليمه راتبه بالكامل طيلة ثلاثة عشر عاماً خلت، بل وكتب بالبنط العريض أسفلها أن سبب تغيبه: «كان في مهمة وطنية».

كنت أنظر إليه صامتاً متتبعاً تقلُّب ملامحه، حين يكشر وجهه أقطب

وجهي وحين يبتسم أفعل وحين ينضح بالانتقام أجاريه وأتمنى ألا تخونني ملامحي.

واحد آخر لديه حكاية كحكايتي لعب لعبتي نفسها، جلادك كان يشك بزوجته، كانت تذهب من ورائه إلى معالج نفسي، وحين اكتشف الحكاية جن، تخيل أنها على علاقة معه، وربما برجال آخرين، بعض الضباط يشكون في ملابسهم وبعضهم يشكون فقط في نسائهم، أنت تعرف أن المقولة الرائجة عن معظم الضباط أنهم صيادو نساء، ومن يلعب كثيراً مع النساء لا يتزوج بسهولة ولا يأمن بعد زواجه مهما كان، يظل طول الوقت متشككاً من فرط النساء اللواتي وقعن في مصيدته، من أية حركة ولو بريئة، من أية علاقة ولو صافية كالماء، المهم أنه أرسل وراءها مأمون، كلنا اسمه الحركي مأمون، كلنا مآمين يا دكتور، ربما أرسل أكثر من واحد، ما أعرفه أنها كانت تذهب عند معالج نفسي في نفس شارعك أو في نفس بنايتك، هل هناك أحد غيرك؟

نعم، هناك خمسة في هذا الشارع وواحد آخر في نفس البناية.

ربما مأمون الذي وقع في قرعتك كان مثلي، ينقب الحائط كي تتهدَّمَ البناية، وبدل أن يعطي اسم المعالج الذي تذهب عنده المرأة أعطى اسماً آخر كي يضلله، وكي يدخل الخيوط في بعضها البعض انتقاماً منه.

لكنها وقعت في قرعتي!

أنت بنفسك قلت قرعتي، أنت لم تكن المقصود أبداً، لكن لا بد من ضحية، إنها لعبة الحياة التي لا تملها، الصدفة التي تفاجئها هي أحياناً، هو كان يقصد أن يمنع الخطر عن شخص بشخص آخر لا يثبت عليه شيء فتضيع خيوط الحكاية.

يا خبر أسودَ، كل ما حدث معي كان بالخطأ، كان يمكن أن تنتهي حياتي كلها لمجرد خطأ، وخطأ غير مقصود، رأيت ما هو أشد بأساً من الموت

وأخطر من المرض لمجرد خطأ، واحد كان مقصده نبيلاً من وجهة نظره فوقعت أنا تحت سنابك من لا يرحم!

- ومن هو مأموني؟

- لا تشغل نفسك، هناك في كل مقهى ومطعم مأمون، هناك خلف كل حائط مأمون، في لحظة قد يصادف المآمين بعضهم البعض، الحكاية التي حكيتها لك صعب أن تنتشر أو تقال في وضح النهار أو تحت جنح الليل، لكن المآمين أيضاً أصبح لهم أسرارهم، صرنا أكثر عدداً من الجلادين، قبيلة بكاملها تنتشر كالجراد في ظل قبيلة ينتشر فيها الجلادون كالسرطان، لا بد للفتك بالمرض من دواء أقوى منه، من نفس نسيجه، من المادة النتنة بعد تفسخها، أنت طبيب وتعرف أكثر مني.

هل يمكن أن توصلني إليه؟

أنا لا أعرفه، وحتى لو عرفته ماذا ستفعل به؟ لم يكن يقصد إيذاءك، دعه ينقذ واحداً آخر، كنت أبحث عنه مثلك، الشيطان للشيطان رحمة.

- قد يوقع واحداً آخر.

ربما بدا على وجهي أنني غير مقتنع تماماً بكلامه، لذا باغتني:

-يجب أن تصدقني. حين تذهب إلى سريرك في آخر الليل ستصدقني، منحتك نصف الحقيقة حتى ترتاح والنصف الآخر لأرتاح أنا.

وقف على قدميه فجأة، شرب بقية الكوب واقفاً، مد يديه وسلم بحرارة لم تشف غليلي، وصل حتى الباب وأنا خلفه بقليل، ثم عاد أدراجه وأشعل سيجارة خامسة:

أحرق خوفك، اقض عليه نهائياً، عش لغدك، الجلاد الذي غدرك غدرني، عرفت من مأمون آخر أنه هو، لم أترك رقصة لم أتقنها حتى أكون

على مقربة منه، لعبتِ كل الألعاب حتى ألتصق به، أحمل ابنته المشلولة إلى الطبيب، ألعب معها وأبكي عليها بصدق، لكنني لا أريده هو، مهما فعلت به لن تبرد ناري، حتى لو قتلته أو عذبته، كنت أحمله إلى سيارته حين كان يجيء إليك، أصعد به وأعود، فكرت كثيراً أن أدخل إليك غير مرة، لكنني تركتك بعد أن بات صيدك في شبكتك، لم أتخيل أنك ستعرف أبداً، لكنك حين اتهمتني أنني هربت منك أيقنت أنك التقطت الحكاية ولم أرَ فرصة للتراجع، معظم الذين يكونون مكاننا لا يفكرون في الانتقام أو في الظفر بمن عذبهم، يقعون أسرى لأيامهم الماضية ويحاولون السير ولو بقدم عرجاء، لكنني لن أفعل مثلك، مع أنني لا أعرف خياراتك وأتمنى أن تنظر أمامك، لا يجب أن تمتد النار من أيامنا الماضية لتحرق أيامنا القادمة، أنا أحاول أن أفعل شيئاً واحداً.

كنت مشدوهاً، وهو توقف لأخذ سيجارة سادسة وأنا أكاد أبيض على ما سوف يفعله.

أنا أحاول وأتمنى أن تقع هذه المرأة في حبي، فكرت فيها لكنها ليست جائزة كبيرة، هي جائزة ترضية يعطونها للاعبين الكبار الذين سقطوا في الأدوار الأولى من المسابقة، لكنها الآن عرفت أن هناك شيئاً ما بيننا، يجب أن أحرمه من شيء يحبه، ليس عندي قلب لأحرمه من طفلته، لسنا ذئاباً مثله ولا يجب أن نكون.

مضى إلى الباب، أمسك بالمزلاج وربت باليد الأخرى على كتفي:

عليك أن تحرمه من شيء يحبه حتى ترتاح، وفي حالتك أنت أتصور أن تلتفت إلى مستقبلك حتى تحرمه من وقوعك أسيراً لماضيك وهو ما يتمناه هو وغيره كي تظل ترساً في آلته التي لا ترحم، مسخاً لواحد جعلوه مسخاً، تعرف، أراك الآن مثل أفيش الأفلام القديمة، تنبض بالحياة رغم قدمها، لكن يداً عابثة امتدت فقطعت نصف الملصق، كان به وجه بطل الفيلم فأصبح بنصف وجه، بعين واحدة، كان به بطلة بفستان يرفرف في

الهواء، فطار الوجه وبقي الفستان، نصف الحكاية فقط ما تبقى، تبدو قديماً لكنك صالح لحياة أخرى فاتت، عليك أن تصنع من نفس الأفيش فيلماً جديداً كما يقول صاحبك فيلليني، لا تنس أن حذاءك الذي اشتهر بأنه حذاء فيلليني ربما يكون هو من أوقعك، كانوا يشيرون به عليك: الذي يلبس حذاء فيلليني أو مجنون فيلليني.

يأخذ نفساً عميقاً ثم يسترسل كصاحب رسالة:

- أنا كنت حانقاً وممروراً في البداية، لم أنس أبداً المتر في المتر الذي وقعت فيه في القبو واختنقت، أنا الآن مثل هذا الجلاد الذي كان يركلني ويصرخ فيَّ: أنت مسؤول عما أنت فيه. وهو مخطئ ووغد، والآن يصرخ: أنا لست واحداً، أنا مئات يا أولاد الكلب. وهو صادق، لكنني الآن رائق مثل جلاد، أمنحه الأمل بأنه سوف يشفى وأن الحياة جميلة، أمنحه الأمل لأنتزعه منه بغتة كما كانوا يفعلون بنا.

- أخمن أني رأيتك من قبل.

- لا لم يحدث، فقط كنت تحلم بي طول الوقت.

نظر في عينيَّ بقوة، ركز طويلاً، أعطاني ظهره، كان حذاؤه بكعب مدبب.

ثم أغلق الباب.

على الأريكة نمت، لم أستطع أن أجلس على الكرسي، أسترجع صوته أقلب ملامحه أكاد أشربها، أضعها في مكان معروف من مخي، مكان لا يغيب عني فأنساه، مكان لا يصل إليه العطب مرة أخرى، رحت أتقلب:

من هذا؟ ولماذا جاء ليدحرج كرة الروليت في غير موعدها ويعود بنا إلى أول اللعبة، اللعبة كانت بين أربعة، بين مطيع ومطاع والجلاد وزوجته، والآن أصبحت بين أربعة: أنا والجلاد وزوجته ومأمون، هذا الذي يقول لي بثقة الكهنة: كان يمكن أن أكون جلادك فامض إلى طريقك، هذا الذي اختبأ وما زال بين طيات ملابس جلاده ليقرض له ما تبقى من أمل، هذا

الذي استعان بالشيطان وفيلليني معاً ليصنع من الفيلم فيلماً آخر، هذا الذي عثر على الحل الذي غاب عني: أن تحرمه من شيء يحبه طالما حرمك مما تحب. لكن الجلاد شخص رقيع لا يعرف الحب، ومع ذلك يجب حرمانه مما يتشبث به، هو متعلق بحبال الحياة وعودة سيفه البتار، لكن الحياة فاتته أصلاً، أمثاله لن يعرفوا معنىً للحياة طالما خرجوا من بزاتهم الرسمية، طالما انتُزعوا من كراسيهم، لا كرسيَ آخر يعيد إليهم ريقهم ولا يجلي بريقهم المنطفئ، ومن يحميه لا يحميه لذاته، بل يحمي الدائرة التي صنعها باستغلاله.

الآن نعزف معاً، أنا ومأمون وهذه المرأة، نعزف مقطوعة الانتقام، كلٌّ على طريقته، لا يوحدنا سوى الكراهية، وكلٌّ يكتب نوتته حسب لحنه رغم أن الكلمات واحدة.

هل كانت هذه المرأة تعرف أنني عُذبت؟ لم يظهر عليها أنها تعرف وإلا لما سألتني مباشرة، لكن ما الذي جعلها تحكي لي حكايتها منذ صفارة البداية كأنها المريضة وليس جلادها وجلادنا، لكن لو كانت تعرف، ما الذي جعلها تبدو كأنها بوغتت حين ظهر مأمون؟ هل كانت تريد أن تنتقم بيدي، ومن أدراها أنني سوف أعرف أصلاً، هل كانت تريد مني أن أنتفض ذئباً فأغتصبها أمام زوجها لتضرب عصفورين بمؤخرة واحدة، يا الله، فكرتُ في لحظة ما أن أحبسهما معاً داخل القفص تقتص منه على راحتها، وتنتقم لي ولها، لو فعلت ذلك لربما ناما معاً وماتا معاً وساعتها أكون قد حققت لهما - ولها تحديداً - ما كانا يبغيانه دون قصد، الذي تعوَّد على العيش بالألم قد يستعذب الموت بالألم، ولمات هو لابساً حذاءه بكعبه المدبب، وهو أشد المشاهد ذلاً لي، يجب حين يموت أن يموت من غير حذائه.

لا لا، أنا أكاد أخرف فعلاً، ضربة مأمون أعادت المباراة إلى ضربة البداية، لكنه مثل حكَم ترك اللاعبين في منتصف المباراة وخرج بصفارته، تركني مع

هذه المرأة، يبدو أنها لم تكن تعرف ولهذا فوجئت بملامح وجهي حين ظهر مأمون، لا بد أنها تشعر أنها خُدِعت وأنني من استخدمتها طيلة الوقت، وربما تتخذ موقفاً عدائياً مني وتكفر بالدنيا كلها، بالجلادين والأطباء، وربما تجد عند مأمون العزاء وبذلك يكون مأمون هو الفائز الحقيقي.

لا، لا تعقِّد الحكاية إلى هذا الحد، أنت اتخذت قرارك ألا تعالجه، في الجلسة القادمة يجب أن تخبرهم أن فيلليني أتى إليك في الحلم وأخبرك ألا تعالجه وأن تعتذر بشكل لائق، دعهم يعتقدوا أنك مجنون وأنك من تحتاج محللاً نفسياً لا هم، الجلسة القادمة بعد يومين، وأنت أخبرت مأمون بذلك بعد أن اكتشفت أنه انضم للعائلة.

لا ينبغي أن أنتظر من أين يأتي الخازوق، ولا أن أظل نهباً لشكوكي حول موقف المرأة، مجرد اعتذارك سوف يبيِّض صفحتك، أنت لا تحتاج إلى عذاب آخر، أنت يجب أن تتخذ قراراً بالخروج من هذه اللعبة نهائياً.

أنت فعلاً مثل الأفيش الحائل الذي تحدث عنه مأمون، لكنك لست مثلما حكى هو بعين واحدة وفستان فقط لامرأة دون وجهها، أنت مثل ملصق نصفه مطاع ونصفه مطيع، أفيش يفشي حكايته الخاصة، وربما أكثر إمتاعاً من الملصقات الجديدة، ممتلئ بالعمق وأحداث الزمن كما قال فيلليني، على وجهك نصف عنوان الفيلم، مر عليك وقت طويل، لم يبق جزء سليم على الحائط، تحتاج إلى حضن ينتظرك منذ زمن بعيد لا واحدة مكسورة، وعليك أن تغلق الباب الآن نهائياً.

أقترب من الباب لأخرج، يجب أن أنادي أولاً على الحارس ليطفئ الأنوار، لكن إلى متى؟ أنا الآن مطاع ولو مطاع جديد، يجب أن أتعود أن أطفئها وحدي.

أمد يدي، مبتلَّة مرتعشة، منذ خرجت من القبو لم ألمس زراً كهربياً أو أي شيء له علاقة بالكهرباء، يجب أن أنتصر على نفسي، إذا كنت أريد أن أمحو الماضي فلأضغط على الأزرار، يجب أن تفعل يا مطاع ليختفي مطيع.

فتحت الباب أولاً، أغمضت عيني خبأت أصابعي داخل كم معطفي وضغطت بسرعة، نفضتني الكهرباء ورمتني بعيداً، لا أعرف كيف أقفلت الباب، لكنني سمعت صوت ارتطامه وارتطام جسدي على السلالم.

المشهد الأخير

لقطة ١:

متعب من كل ما حدث، من الأحداث، من التذكر، من اشتهاء التذكر، من الأصوات، صوت الجلاد الذي يصدر كأنه يصدر من هواء ثقيل، من رنة زوجته الثائرة التي تدق دوماً طبول الحرب القادمة بقوة، المتغنِّجة الرائقة أحياناً، من بحة مأمون العميقة وكأنها تحاول التطهر من خطيئة، المكتظة بانتقام ناعم يذبح بسكين من حرير، صوت به خيال يوحي أنه سوف ينتصر على الواقع، من صوت جارتي حبيبتي المشحون بطبقات الرغبة منذ أن نادت أول عاشقة في التاريخ على حبيبها، حتى المنتهى، الممحون بأوتار الغياب ونداء الشهوة والاكتمال، كأنها وحيدة تنادي على آدم الذي تاه منها في صحراء شاسعة المرامي والأطراف، من صوتي الذي هجرني غصباً وكرهاً، لا أستطيع له عتباً ولا أستطيع له هجراً، أنتظره بشغف كأنه إن عاد عدت، من صوتي الجديد الذي يقول الحب والكره، الشوق والهجر، الصراخ والنعومة بطبقة وحيدة يتيمة الأبوين.

متعب تعباً يهد جبلاً من الحنين، لم تعد لي خيارات كثيرة، لكنَّ عندي خيارُ ليس عند أحد سوى فيلليني، أن أنام ملتحفاً بمعطفي على الأريكة العريضة ليستريح ظهري من حمله، ما زال هناك وقت حتى يحضر الممثلون، أقصد المريض وعائلته، أنام لأحلم، أحلم بما لا أعرفه، وعند الاستيقاظ أرسمه كما يفعل فيلليني، ربما أحلم بفيلليني نفسه.

لقطة ٢:

ستديو التصوير جاهز، عيادة الطبيب، فيلليني يدخل إلى المكان

كأنه نصف إله ونصف مغنٍّ بقبعة مائلة بخفة على وجهه، صمت يطبع اللحظة ثم تنفرج الأسارير، ينتحي جانباً، يخلع قبعته، ودون اكتراث يضعها على طاولة بجانبه، ينادي على شريكه في المخطوط الذي وضعاه معاً، المخطوط به صفحة واحدة مكتوبة، ما الذي يفعله هذا الرجل في أفلامه؟ مخطوط كبير يبدو ثقيلاً كله صفحات بيضاء، واسكتشات لرسوم يبدو أن لا أحد يفهمها سواه. دائماً كان يكتب صفحة واحدة ويرسم مؤخرات كبيرة سمينة، ثم حين يذهب إلى الاستديو يستدعي اللقطات من أحلامه، يخلق المشاهد التي لم تكن خطرت على باله من قبل، أحياناً كثيرة يستخدم الذي يقع بين الممثلين والمساعدين وبقية فريق العمل في الاستديو في اللقطات التالية، ثم يقوم بتنفيذ اللقطات التي حلم بها، هذا شاعر وليس مخرجاً وما يصنعه ليس أفلاماً كما يتوهم البعض، إنه يبدع قصائد.

لكن يجب ألا يلهيني ما يفعله عما كتمته في صدري:

لا تكذب على نفسك، يجب أن تغادر، يجب أن تترك هذه اللعبة فوراً، يجب أن تمتن للحياة لأنها منحتك الفرصة: أن يقع جلادك في يدك، هذا لا يحدث للكثرة ولا للقلة، عشت تحلم وشاهدت حلمك بين يديك كما رأيته تماماً، دون حاجة إلى مفسري الأحلام، غيرك لم يرَ سوى كوابيس معلقة في السقف وتحت المخدات، غيرك لم يستطع أن يفعل شيئاً، بل تمنى لو لم يتحقق حلمه أساساً، لم يرَ غير أنياب السلطة مغروزة في صحنه.

عليك أن تستعد، سيأتون بعد قليل، أنت اتخذت قرارك ويجب أن تكون واضحاً معهم صارماً مع نفسك، لن تقتله ولن تعذبه، لو فعلت ذلك لتساويت معه، وساعتها يمكن أن تكونا صديقين، وستتمشَّى العنقاء في شوارع المدينة وتجلس على المقاهي بين الرواد.

الحياة ليست خطأً واحداً، غانية لها عثراتها ونتوءاتها وجحيمها، لكنها حين تعطيك فرصة لإطفاء جحيمك فهي بعض عادلة، إنها تنتقم معك.

يجب أن تغادر، هذا هو الخيار الوحيد الممكن، فريستك تحت سكينتك، ألا يكفيك هذا، من النادر أن يكون الواقع أجمل من الخيال إلا لماماً، هذا ما قاله فيلليني لك، أنت تعتقد أنك عرفت كل شيء بالتعذيب لكن الحياة فيها أكثر مما نعرفه عنها، المهم ليس ما حدث، المهم هو الخطيئة التي صنعت هذا الحدث، والخطيئة تدق على الباب الآن.

جاءوا معاً، مأمون تولى مهمة التروللي، حمله إلى الأريكة فوراً مع أنه بغل لا يستطيع اثنان حمله، ربما رغبة التشفي أو نشوة الانتصار، الصياد يحمل سمكة على كتفه تعادل وزنه مرات لأن الزهو بالانتصار يجعل الفريسة ريشة، يحمله كحقيبة مثل الحقائب التي كان الجميع يكتب تقارير عن الجميع ويحشونها بها، يحمله كأنه يخشى أن يُقتل بيد أحد غير يده، وربما لو استطاع الآن أن يفتح مخه لخرت التقارير منها بدل الدماء والمحتويات، لتدفق الضحايا على أرض العيادة ، وراحوا يزاحمون بعضهم البعض،يكاد يدوس واحدهم الآخر، تدافعوا لفتح الباب وهُرعوا على السلالم كهاربين من النار، البعض الآخر فتح مزلاج الشباك وقفز دون تفكير في العاقبة، ما الأسوأ الذي سيحدث له؟ البعض كان يتطوح بلسان متدلٍّ، البعض يتحسَّس جسده، يهرش في كل مكان، بعضهم يمسح دماءً تسبح على جبهته، تغطي رقبته، تسيل من ساقيه، بعضهم يصرخ والصراخ يملأ العيادة يكاد يشرخ طبلة أذني، موسيقى المعذبين تتلى في العيادة وغناء حزين غامض يملأ المكان، واحد يحمل مطرقة ربما هي التي هوت يوماً على رأسه ويهوي بها على رأس واحد أمامه، واحد يشبه بائع التوت والرمان ينتحي جانباً يصعد كرسياً، يرفع صوته محاولاً أن يغطي الصراخ بصراخ آخر، بمواويل عالية، وواحد كأنه صاحب بن لادن يرفع الأذان معادلاً الغناء، الله أكبر مرة، وابعث لي جواب وطمني مرة، والبعض الآخر يمسك برأسه.

ورأسه الآن ملتوية على حالها تبدو أكثر راحة، بعينين تنظران إلى بلاط الغرفة، لعله يعد النقوش في البلاط المزركش.

وهي تنادي عليك بثياب تشف كأنها استعدت لمغازلة الإله نفسه، وأنت ببنطال حزامه مشدود جيداً لكنه لن يستطيع أن يمنحك الحصانة أمام مفاتنها، خاصة أنك الآن مطاع ولست المعالج النفسي، منذ بدأت التفكير في قرارك وأنت تتحلل من سمت الطبيب والمحلل، كما أن وجهها الذي بدا بشوشاً ومرحباً يقول لك إنك مطاع ولست الطبيب، لكنك لا تستطيع أن تعرف من نظرتها ماذا تريد بالضبط ولا فيما تفكر، لعلها خمنت للحظة أنك استخدمتها، لكنها بالتأكيد لن تراك ذئباً، هي تعرف أن الذئب نام في حضنها هي، ومن المؤكد أنها حدست أنها هي من استخدمتك لمساعدتها في الانتقام منه، على الأقل ستفكر أنك لم تستغل دموع قهرها لتأخذها انتقاماً، ستحمد لك أنك لم تغتصبها بمزاجها وهي التي اغتُصبت طوال حياتها، لو فعلت أنت ذلك لربما بصقت في وجهك ثم على مؤخرة العالم وفتشت عن جلاد آخر يكوي أحشاءها لا عن عاشق يروي أرضها بالحب، ويفتح قلبها ودهليزها بالعشق، أنت فتحت لها طريقاً جديداً للحياة: تختار وهي سعيدة، الذين يختارون تحت الضغط يعيشون أيام عمرهم تعساء مهما أنجبوا أو شعروا بالرعشة في أسرَّتهم، هي رعشة الجسد لا رعشة الروح، تمر وتنقضي زائفة كأنها لم تحدث، وكثيراً ما تصيب الشخص بالغثيان، بعض الرجال ومعظم النساء يتقيأ روحه بالفعل بعد المضاجعة، بعد ذلك يكره جسده ويفكر في الانتقام منه بإهدائه لكل العابرين، ربما تفكر وهي في لحظة صفاء أن روحك ما زالت هائمة بالعدل وإلا لاتفقتما على قتله معاً أو تركه مثل كلب مسعور داخل القفص، ستفكر أنك نبيل لم تقبل ضمة ساقين ولا انفراجتهما كمتعة رخيصة، الذين يعزفون من الرجال عن السيقان المفتوحة قلة تعرف معنى المواقعة بالرضا بل باللهفة، مذاق آخر لا يعرفه سوى الذين استطاعوا أن يكتشفوا الريق الحلو الحار للمرأة، لا يمكن أن تحصل على الحلو الحريف دون رغبة مشتعلة تحت مظلة العشق.

وهو مسترخٍ تماماً كأنه مدرب عتيد أدار مباراة لكرة القدم خسر فيها لكنه كسب بطولة الدوري رغم الهزيمة، ومن ثم حمله اللاعبون بين أيديهم

وراحوا يمرجحونه لأعلى فسقط منهم من فرطِ الفرح الناقص والتواكل على بعضهم، سقط على الأرض فالتوت عنقه وسيشفى بعد قليل، ينتفض من صمته الأسود، ينادي بصوت عالٍ: أنا الدكتور، أنا الدكتور، ثم يعود إلى صمته بعينين متقدتين بالغضب، بالمرارة، وأنت تبتعد عنه حتى تحسم أمرك تماماً، لم يبق إلا وقت قليل على قرارك النهائي، ثم إنك لا تضمن ألا يفسد فيلليني اللعبة، إنه مجنون، من الممكن أن يغير اتجاه نهاية الفيلم في اللحظة الأخيرة.

تبتعد عنه، تتساءل بصوت يرن داخلك: من يقود هذا الجلاد الذي يبدو كإله أخير للحياة؟

اسمع، مسألتك واضحة تماماً، بينك وبين هذا العالم جدار يراك ولا تراه، لم تصنعه أنت بل صنعه هو، وإدانتك له لن تكفيك، يجب أن تعثر على حل يريحك وعليك أن تكسر هذا الجدار، كل يوم جديد يمر عليك يصبح الإحساس بالأمان محض هراء مثل قطة وحيدة في صحراء، أنت لا تستطيع الوقوف على قدميك الآن، ربما كنت تستطيع وأنت تحت التعذيب لأنك تحب الحياة، تشبثتَ بها وقررت وقتها ألا تسقط تحت أقدام الأوغاد، لكنك الآن لا تستطيع أن تمنع اصطكاك ركبتيك، رغم أنه الآن فريسة بين يديك بعد أن كنت أنت الفريسة، ألف ولام التعريف تفرق كثيراً بين نكرة وبين المعرف، أنت كنت نكرة وستظل، وهو معرف وسيظل، لا تجعله نكرة في عينك حتى ولو كان في عين الملائكة والشياطين والتاريخ، حتى تستطيع أن تقف أمامه وتقضي في أمره، أنت لا يمكن لك أن تقتل النكرات، تريده معرفاً واضحاً كرأس أبي جهل، لو ظهر في عينيك كنكرة لن تتقدم قيد أنملة تجاهه، كن واضحاً مع نفسك للمرة الأخيرة واتخذ قرارك بالنهاية قبل أن يلعب فيها فيلليني، احتمل واحداً قوي الشخصية واقض في أمره، من يأتون لعيادتك كلهم ضعاف، خذ قرارك الآن بلا تردد، أنت لم تقتله ولم تعذبه لكنك أيضاً لن تسامحه، نعم لن تسامحه، قلها

بصوت عالٍ، إذا كان لا بد من الخطأ فارتكابه في الفعل خير من ارتكابه في اللافعل، هكذا قال فيلليني الذي يخرج من ركنه الآن ينادي بصوت جهوري: مشهد النهاية، أكشن، أكشن.

المشهد الأول:

كلاكيت، أول مرة.

الكاميرا تدور تصور مشهد الجلاد داخل القفص، يتم تكبير اللقطة بعدسة زووم على وجه الجلاد، تظهر قسماته جامدة كصخرة وهو يرى زوجته عارية تماماً ومطاع يجذب يدها، ينطرح فوقها كجوال ثم يبدأ في مضاجعتها بآلية من الأمام كأنه يؤدي واجباً عسكرياً، بعدها يقلبها بسرعة كأنه طبيب حكومي ويواقعها من خلف كأن أحداً يجري وراءه، ينظر إلى الحائط كأنه يضاجعه والمرأة تصدر أنات جافة، والمشهد كله يبدو كأنه مشهد حيواني، الكاميرا تلعب لعبتها تتنقل بخفة بين الجسدين الملتصقين المرتبكين، الجاحدين لوجودهما معاً، وبين وجه الجلاد الذي يبدو صامتاً كقبر حديث، لقطات متتابعة سريعة تتماهى مع سرعة جسد مطاع وارتطامه بجسد الزوجة، المهم الآن أن أقتلها أمامه ولا تهم الأصوات، فيلليني كعادته سيقوم بتركيب الأصوات بعد الانتهاء من اللقطات، إنه معنيٌّ باللوحة التي ينتجها، باللقطة البصرية، لكن فيلليني يفاجئ الجميع، يصيح بصوت متأفف: ستوب.

يقترب مني: يا مطاع، لو كنت تريد قتلها ما كنت ستفعل أفضل من هذا، أنت لست في مسرح الجريمة، أنت في سرير الحب، حتى ولو كان حباً للانتقام يجب أن تُشبعها لتشبع منها، لا تكن كالرجال الأغبياء يفكرون في رغبتهم فقط، فكر برغبتك وأنت تروي أرضاً، فكر بالأرض، لا بد أن تمهدها جيداً قبل أن ترويها، قل لها بأصابعك إنك تحبها، بنظراتك بأنفاسك ثم بجسدك، بعد ذلك ستمنحك الأرض عسلها أطناناً، لا بد أن تحيي شهوتك فيها كلها لا شهوتك الجنسية فقط، صدقني ستقتل كل ما في نفسك وأنت بهذا الأداء باستثناء شهوتك فيها، هي تحتاج مضاجعة

بالحنان، تفتح حواسها كلها حتى تطمئن لذلك، ثم لا مانع عندها بعد ذلك أن تخرق الأرض حتى لو حولتها إلى معركة حربية، شرط أساسي للعبة: أن نمنح النساء الحب ليفتحن بدلال الرضا أبواب السراديب، لو أنني مكانك لانضغطت بين هذين الثديين اللدنين الواقفين كأنهما حارسان على باب معبد، كأنهما إعلان عن الحليب ولغُصت فيهما حتى امتلأت أكواب الحليب وفاضت، أنيتا إكبرج لم تستلطف ماستروياني قبل تصوير دولتشي فيتا ولا هو انجذب إليها، هي تعتقد أن كل من يقترب منها ليس له غير غرض واحد، أن يسوقها إلى غرفة نومه، ومايستروياني هو النجم الذي ترتمي عليه النساء، يجذبهن بمغناطيس نادر، لم ينجذب أحدهما إلى الآخر خارج الكادر، لم ينسجما على الإطلاق، لكنهما حين دخلا في الكادر كادت الشاشة أن تضيء من فرط فوران الرغبة وسحر المواقعة بالحب، يا مطاع يجب أن يشعر الجلاد بحرارة لقائكما كي يصعد الصهد من وجهه، من نافوخه، دعه يتمنَّ لو كان سليماً ليركبكما معاً، دع الحسرة تسيل من وجهه لترى ملامحه معذبة على عدسة الكاميرا.

لقطة ٣:

لا تأخذك به شفقة، دعك من ألعاب فيلليني، سوف يصور النهاية عدة مرات، ثم يختار النهاية التي تناسبه هو، وأنت يجب عليك أن تختار النهاية التي تناسبك أنت، أنت تنتقم الآن لكل هؤلاء الذين رأيتهم يخرجون من رأسه مضمَّخين بالدم والعاهات، بالعار والخوف، بعضهم فقد النطق لشهور، بعضهم يخشى صفارة عربة المطافئ، يتبوَّل قبل أن تطلق خراطيمها، بعضهم كره أصوات الكلاب وأصوات المؤذن، وغيرهم لا يأكل اللحم ولا يطيق رائحة البسطرمة، بعضهم يصحو من النوم تلحقه زوجته قبل أن يخنق أطفاله، بعضهم يكره كلمة كرامة ويتمنى لو حذفوها من اللغة، لا بد أن تعطيه دواءً يدوخ به على كل الأطباء، كانوا يعطونك الأقراص لتعترف بمشاركتك في ثورة كوبا، لتهلوس وأنت الطبيب، المشكلة أنك كنت تعرف وهم يعرفون، لكن السلطة لا تفرق بين الحائط والسقف إلا حين تشبح المشتبَه بهم أو تعلقهم من أطرافهم.

إذاً أرسله إلى مستشفى المجانين، صدِّره لهم كمنتج جديد يستفيدون منه في علاج بشر طيبين، المجرم ليس فقط من اختراع أدوات القمع، بل من قام بالتنفيذ، والأسوأ والأكثر حقارة من يسوغ ذلك للبشر أجمعين، أنت لا تنتقم منه، بل تنتقم من الأفكار في رأسه، من نظرته إلى غيره، من نظرته إلى نفسه، من ذاته التي توقن أننا رعاع، من شيعته في العمل وخارج العمل، من رؤسائه وتلاميذه ومن النصب التذكاري لشهدائهم أو قتلاهم، اكتب له وصفتك الأخيرة، أرسله ليعيش بين المجانين ليجن، عله يجد حقيقته هناك، إن صادف طبيباً قال إنه غير مجنون وأخرجه من هناك لأي سبب فأنت سودت صفحته وزرعت الشك فيه وفيمن حوله وهذا حكم مخفف عليه، وإن سقط بين يدي واحد دحروه مثلك فسينتهي أمره.

لا تكذب على نفسك، أنت الآن تلعب وظهرك للحائط، لذا تفكر بآخر نقطة على الحافة، والذي يركب الحافة يعتقد أنه الوحيد الذي سينجو، يعرف أن البحر خلفه وأن نسبة الملوحة لن تقتل الأسماك.

أكشن، أكشن.

المشهد الثاني:

لقطة من بعيد ثم لقطة متوسطة للقفص، الفجوات بين الأعمدة الحديدية تسقط على وجه الجلاد تصنع ظلالاً لأسياخ تسقط على أنفه مرة وعلى عينه اليمنى مرات، اليسرى لا تستطيع الكاميرا أن تلتقطها لأن رقبته ملتوية والعين مختبئة بين أنفه والأريكة، تقترب الكاميرا أكثر، تبدو نتوءات الوجه واضحة وأخاديد غريبة تظهر على جهاز المونيتور أمام فيلليني، يا الله هذه الأخاديد لم تلقطها العين المجردة، وحدها الكاميرا من التقطتها، جذبتها من الداخل، ربما ظهرت الأخاديد مؤخراً من فرط إحساس الجلاد بالعجز، وربما كانت موجودة ولم ألحظها لأنني لم أكن أستطيع النظر بإمعان إلى تفاصيل وجهه، ومطاع يسحب الزوجة من ذراعها، يضع السكين في يدها، رغبة الانتقام في عينيه واضحة يقول لها بصوت يضغط على حوافه: خذي ثأرك وثأر الآخرين حتى تبيضَّ صفحتك أمام نفسك، حتى تستطيعي

أن تنظري بجرأة في عيون العالم كله، تنظر إليه مترددة، لا يدع لها فرصة للتراجع، يربت على كتفها بحرارة ويدفعها إلى داخل القفص، السكين طويلة لامعة، وجهها غادر التردد وبانت قسماته حادة مضغوطة، تتقدم بجرأة من يريد أن يقتل مرتين، بغيظ من صمَّم على التشفي، والجلاد ينتقض من فوق الأريكة، يقف فوقها، قدمه تنزلق من حافتها فيسقط على الأرض، ينظر في اتجاه زوجته وجسده في اتجاه آخر، يتراجع زاحفاً إلى ركن في القفص بذراعين بزاوية حادة على صدره، وهي تتقدم مرة واحدة فجأة، الكاميرا المحمولة على عمود أعلى القفص تظهرها في الكادر وظل الألواح المعدنية يسقط على وجهها، ثم لقطة مقربة وهي تمد سكينها بقوة لطعنه، تتبعها صرخة مدوية تهز العيادة، الدم يندفع إلى أعمدة القفص يلطخها، يسيل عليها، يتناثر على الأرض، والغيظ يصعد إلى أعلى، ستوب ستوب.

لقطة ٤:

هذا المشهد لم يدفعك لشيء قدر ما دفعك لتتحسَّس جسدك، جسدك الذي ظننت أنك اكتشفته مع جارتك، لكنك خبرته لأول مرة على وقع التعذيب، لتعرف أن لك صابونة في ركبتك وعظمة نبتت في كتفك، تؤلمك الآن، وموضع في قفاك يعرف الجلاد أن الضغط عليه يسلمك فوراً إلى الموت.

جسدك الذي اخترعته لك جارتك ليس جسدك الآن، كأنك تعيش بجسد للبهجة وآخر للمحَن، ستعرف أن أظافرك النظيفة اللامعة هي كل ألم الكون حين يسحب جلاد صغير واحداً منها أمام عينيك، حبيبتك كانت تلحس لك جسداً آخر تتذكره الآن وعليك أن تعيده وتستعيد طعمه وطعم لسانها.

وجارتي تدخل الآن، لا تستطيع أن تنبس في حضور فيلليني، تنتحي جانباً على أطرافها، وهو يقوم من مقعده خلف الكاميرا يسلم عليها بكلتا يديه، يقبلها بحنان ثم يتجه ناحيتي:

الحياة سلسلة من الأدوار، يجب أن تتعلم أن تحيا مجدداً، حينها سوف تنبت لك أجنحة قوية، لا تسجن نفسك في الماضي، كلما عدت إليه هاجمتك الأشباح، لا يمكنك اختصار الجلاد بشخص أو حفنة تشبهه.

ينظر ناحية جارتي مرة وناحية الزوجة بطرف عينه: جمال الأنثى في كل الأشكال والأحجام، المرأة تشعر أنها حلوة حين يشعرها واحد بجمالها، حينها تستحلي نفسها وتبدو أجمل، ابحث عن السعادة قدر المستطاع يا مطاع، عليك أن تلاحقها كي تشعر بسعادة، لا بد أن تنسى ماضيك وتلهو معها، اللهو الخالص فيه صدق خالص، قد تغير ألوان البيت، أعمدته، غرفه، لكن رائحة الغرف تبقى هي هي مهما اغتنى السكان، إنها رائحة البشر.

أعرف وأعذرك، لا يمكن حصر ما حدث لك لكن يمكنك حصاره، عليك التمسك بالغد، يجب أن تمسك الثور من قرنيه، انظر إليها جيداً، كل شيء في ثوبها على وشك الانفجار، امرأة غارقة في حنينها، منشغلة في ملابسها الداخلية وكبح جسدها من الهروب، عد إليها، لا تضحك على نفسك ولا تضيع الفرصة الأخيرة، من السهل أن تكسو نفسك من الخارج، من الصعب أن تغطي باطنك، ارفع ذيلك، أنا طاووس يرفع ذيله من أجل أنثاه، امرأة تحبك وتراك كما تحب أن تُرى، من له بامرأة قدمها على الأرض ورأسها في السحاب.

يقترب بوجهه من وجهي حتى يكاد يلامس أرنبة أنفي:

هناك حياة أخرى ممكنة، لا يجب أن تتماهى مع الجلاد حتى لا تقع فريسة لروحه الشريرة، أو لشبحه الذي يحوم حول سريرك، عليك أن تنسى كلمة ليت، ليس صحيحاً أن النار تدمر كل شيء، تبقى دائماً بارقة أمل، لا تنسَ أن تمنحه لحبيبتك، للشوارع، للمرايا، لمفاتيح الكهرباء، للشروخ في الجدران، الأمل رشوة يقبلها الجميع.

يربت على كتفي ويمضي على مهل ثم يستدير:

لا تنسَ أن تخلع الجورب حين تنام.

المشهد الثالث:

فيلليني يأمر الزوجة أن تعود إلى القفص ثم تلقي بالسكين بغير اكتراث على الأرض بعد أن سدَّدت طعناتها، وهي تفعل ذلك ببراعة، أفلتتها بنعومة قاتل ثأر للجميع أمام كاميرا تلاحق السكين على الأرض ثم تنتقل بخفة إلى وجهها الذي يقول كل شيء بشفتين منطبقتين.

تليها لقطة من بعيد تضيق لتسقط على وجوه فاغرة الأفواه حول القفص، وحده وجه مأمون كان طبيعياً مرتاحاً، يقترب مني ويقول دون مواربة بصوت واضح: لا بأس أن يغط في دمه وأن نبول عليه، كلنا تبلَّلنا بماء الضباط.

ستوب.

استراحة.

كان عليك أن تقتله مائة مرة يا فيلليني، في التعذيب لا شيخوخة ولا معاش، رجل يعذب مواطنيه دون أن يصاب بأدنى اضطراب، ماذا يظن هؤلاء وأية عقيدة يؤمنون بها تجعلهم يحصدوننا كغنم؟ مهما كان إيمان هؤلاء بربهم يجب ألا يكنسوا أرواح الناس بصلواتهم ووضوئهم بالدم.

عليَّ أن أواجه نفسي بحسم، كنت بلا قضية والآن أصبحت لديَّ قضية: يجب أن تشفى يا مطاع، أنت أمام وجعك، وعليك أن تخفيه لتتفرغ لأوجاع الناس، هذا هو الوجع الحقيقي.

أنا لن أسامحه، سأظل أفكر في الانتقام منه، والذي لم أغفره له لن أغفره إلى الأبد، أنا ممن يخلصون لضغائنهم، ربما أصحاب القلوب الطيبة هكذا، وأنت طيب يا مطيع، أقصد يا مطاع، قد يهبط ما في قلبي للقاع وأحياناً يطفو هكذا، لكنني واثق أنه لن يغرق.

لا تقدم تنازلات مهما كان، والأهم ألا تستبدل الحرية بالأمان، لن تحصد أيهما إن فعلت.

لا تحتاج إلى رد اعتبارك أمام أحد، بل أمام نفسك، ولا تنتظر شيئاً من الناس، قالها أفلاطون من زمن بعيد: لو أمطرت السماء حرية لرفع العبيد مظلاتهم.

إذاً دعه لمصيره، كل الفرضيات سوف تريحه، اتركه يواجه سوأته، ساعده عليها بإرساله إلى العصفورية، ضع المكواة الساخنة على قفاه، المصيبة أن هؤلاء يحتاجون إلى مصيبة من القدر ليتعذبوا ونرتاح نحن.

وفيلليني يخلع قبعته ويقترب:

أنت حلمت طول عمرك بالرفق بالبشر، ثم في فترة أخرى بالأمر الإلهي، ثم بآلهة متعددين، صدقني أنت الإله ذاته وهم كلهم عبيدك.

أنت لا تريد أن تتشفى فيه ولا تتصور موته، لا تتخيل زوال أمثاله من العالم انتقاماً، بل خلاصاً لروحه من الهوَّة القذرة التي سقط فيها حتى صارت صخرة سوداء.

على الجلاد أن يجد حقيقته يا مطاع، وليس حقيقة الدور الذي مثَّله، وحين يجدها سيحقِّق السيطرة على الوهم الذي عاش فيه وقتل الناس به.

أنت كنت تصدر الأوامر إليه كأنك تصدرها لنفسك، لماذا لا تفكر الآن أن تطير، لم يبقَ لي غير مشهد واحد، أنت لا تحتاج إلى روحك القديمة التي تحطمت، تحتاج روحاً جديدة لتحلم وتعيش سعيداً، وحتى إن مت ستموت ميتة بريئة، ليس صحيحاً أن النار تدمر كل شيء، تبقى بارقة أمل.

ثم غمز قبل أن يضع قبعته ويتجه نحو مقعده:

غيرك ذهب إلى معالج نفسي.

أكشن، أكشن.

المشهد الثالث:

كلاكيت ثاني مرة:

رشاش دم، نافورة دم تغطي المكان، تغطي كل شيء: الأرائك، الكراسي، الحيطان، المكتب، دماء على اللوحات، على قبعة فيلليني، على حذائه، لكن لفظ الحلم واضح تماماً، دماء دماء، حذاء الجلاد بكعبه المدبب في ركن القفص وموسيقى نينوروتا تصعد في الخلفية.

فيلليني يقهقه عالياً: ستوووب.

لو كان بي صوت لصرخت.

فيلليني يقبلني بسرعة ثم يدخل إلى القفص، خلفه مساعدوه، لم ينسَ أن يضع قبعته على رأسي، في إثرهم الزوجة ثم مأمون، الباب ينغلق عليهم فجأة من الخارج، أهرع لإنقاذه، الباب مغلق كأنه بلا قفل، انصهر الحديد في بعضه، أدور حول القفص بسرعة أبحث لفيلليني ومن معه عن مخرج وهم يدورون من الداخل معي، وهو ساهم يشير لمن معه أن اهدأوا، يغمض عينيه كأنه يحلم ورأسه منحنٍ قليلاً للأمام ثم يطرقع فجأة بإصبعيه: الإبهام والوسطى طرقعتين، ثم لمرة ثالثة بعدها يرفع يديه لأعلى فتهبط مظلات لكل واحد معه، يفتحونها في عجلة ويرفعونها إلى أعلى، يطيرون خلفه من بين قضبان السطح العلوي للقفص، ينسربون تباعاً وقهقهته ما زالت تملأ المكان، وأشباح تخرج من القفص خلفهم، تطير في أرجاء العيادة، تدور فوق رأس الجلاد دورتين ثم تغادر فجأة أسراباً.

أفتح درج المكتب، هناك علبة ممحاوات اشتريتها لأمسح بها القبو الذي أرسمه كل يوم، أقطع ورقة من دفتر الوصفات، أرسم قبواً، أبحث عن مكان مناسب لأصنع فتحة للخروج منه، أمزق الورقة، أرسم قبواً آخر وفتحة خروج أخرى ثم أمحوهما، وهكذا وهكذا، تمنيت لو أجد مكاناً مناسباً لفتحة الخروج، مخرج اقتنع به، تقت لرسمة لا أمزقها ولا أمحوها،

يا ليتني كنت قادراً على صنع مخرج مناسب، كلما رسمت اتسع القبو على منافذ الخروج، تهرب خارج الصفحة، الذي يغيظني أنني أرسم القبو وفتحة الخروج ثم بعد فترة يظل القبو وتختفي الفتحة، لطالما حلمت أنني أرسم قبواً وأخرج منه، أتذكر ذلك الرسام الذي كان مثلي في قبو، رسم على الحائط نفقاً للخروج منه، نفقاً يتسع لجسده وروحه، ثم مرق منه، الآن أرسم في الهواء مثله مرة وأرسم على الورق مرة، فتحة الخروج تثبت في مكانها، تتسع، أنجح الآن في المرور منها، أشعر بالهواء البارد يحملني للفضاء وأن الزهور تنمو داخلي.

الجارة تبتسم، تخرج أولاً، تمد يداً خلفها بغنج لتسحبني، أتعلق بها، أقترب من الباب، أفكر أن أطلب منها أن تطفئ الأنوار، لكن إلى متى؟ أنا الآن مطاع، مطاع جديد، يجب أن أتعود أن أطفئها بنفسي.

أمد يدي، مبتلّة مرتعشة، منذ خرجت من القبو لم ألمس زراً كهربياً أو أي شيء له علاقة بالكهرباء، يجب أن أنتصر على نفسي، إذا كنت أريد أن أمحو الماضي فلأضغط على الأزرار، يجب أن تفعل يا مطاع ليختفي مطيع.

أمسكت الباب بيدٍ، أغمضت عيني، خبّأت أصابعي داخل كم معطفي وضغطت بسرعة باليد الأخرى، انطفأ النور ولاح نور في قلبي، لا أعرف كيف أقفلت الباب، لكنني سمعت صوت ارتطامه وارتطام جسدي فوق جسد جارتي على السلالم.

على الأرجح، هذا ما حدث!

عناوين المشاهد

وصول الهرّ صاحب الظل الثقيل

وفي سيرة أخرى : (الأخ الأكبر يونغ).

المبعوث الأخير للملائكة

وفي سيرة أخرى : (الأبله والمخرج)

جسد مقهور على السرير

وفي سيرة أخرى : (المرأة هي ملاكي الحارس)

من يحل مزاليج هذه الأبواب بعد أن أوصدها؟!

وفي سيرة أخرى : (كوابيس النهار وأحلام الليل)

الاعتراف بسرقة حذاء بابا الفاتيكان

وفي سيرة أخرى : (صناعة الأفلام أكثر إثارة من مشاهدتها)

قلبي وقع في المصيدة قبل أن تفرد شباكك.

وفي سيرة أخرى : (سيدة فولجور ذات الخمار)

البحث بمكر أبيض عن الرمح

وفي سيرة أخرى : (. أفضل مخرج ولكن ليس أفضل زوج)

أظافر طويلة وحناجر أطول

وفي سيرة أخرى : (وجوه مضحكة للواقعية الجديدة)

زجاجة واحدة لأتذكر ما نسيته

وفي سيرة أخرى : (الأحلام هي الحقيقة الوحيدة)

كما حدث لماستورياني للأسف

وفي سيرة أخرى : (الموت ينبض بالحياة)

أطلق النار على آخر أوهامك

وفي سيرة أخرى : (صناعة الأفلام والحب سيّان)

تصنع الصدفة ما لا يصنعه الخزّاف

وفي سيرة أخرى : (قصص مصورة ومهرجون وروائع أدبية)

أريد أن أقفل الجرح على أسئلته

وفي سيرة أخرى : (هشاشة الحياة)

إشـــارة أخـــيرة: تتقاطع وتتعامد عناوين مشاهد الرواية مع عناوين سيرة المخرج الإيطالي فيلليني . إما بشكل رمزي أو اعتباطي ، وأي تشابه بين افتراءات السارد وبين حياة فيلليني واختلاقاته ، هو محض استعارة فقط !.

كتبت الرواية في المقاهي التالية:

مقهى أرجيلــة: اختلف مالكاها بعد الثورة، الأول صاحب النصيب الأكبر كان ضد الثورة، تخارجا، وأقام الثاني مقهى آخر.

مقهـــى أربيــــلا: تغير اسم المقهى لأربيلا، وزادت الأسعار زيادة فاحشة فانتقلنا بشخصيات الرواية إلى مقهى آخر، وهو ما سبَّب ازعاجاً شديداً لهم، لدرجة أنهم كانوا يغمغمون أثناء كتابة النص.

مقهــى أرجيلة ٢: كان شرط الشريك الثاني أن يحتفظ باسم المقهى الأول، فهو الذي أنشأه وأعطاه شهرته وتعب في حشد زبائنه، وعليه فقد تم منح الأعضاء الذين انتقلوا معه صفة عضو مؤسس مع خصم جيد على المشروبات والأراجيل، غير أن بعضنا متوجس؛ لايعرف إن كان ذلك عملية جر رجل، أم ستستمر فيما بعد.

على أية حال سأخبركم في الرواية التالية إن كان لنا عمر ورزق.

مقهــى أندلســية: مقهى عتيق في وسط البلد وقعت فيه مراجعة النص، كراسٍ عتيقة من أيام الملك فاروق، لكن الوجوه بشوشة ومقامنا عالٍ ومحفوظ فيها: جاء الدكتور وحيد، ذهب الدكتور وحيد!

فيلليني السينمائي هو سيد الاختلاقات بامتياز. وفيلليني الرواية هو الاختلاقات بلا سيد. ووحيد الطويلة يبزغ من قلب المأساة والسخرية والعشق المهشم وامتهان الإنسان للإنسان، كي يمحو الهوة بينهما حتى تغدو نسيجة الاختلاقات واقعا استعاريا ورمزيا بخيوط متشابكة، وكلما سحبت خيطا وجدت يدا أخرى لامرئية تسحب بمعيتك خيطا آخر، فتتشكل ضفيرة مركبة من المشاهد والسيرة. طبعاً، كل هذا محض خداع مقصود، لأن ثمة سارداً جباراً برتبة فنان للمونتاج يعيد بناء هذه التوازيات والتعامدات والتقاطعات مثل ساحر، ويخرج في كل مرة من القبعة أو الحذاء أو بئر الذاكرة الجمعية المقموعة هرا ثقيل الظل أو جسداً مقهوراً على السرير أو مارشيلو ماستورياني شخصياً. الجميع هنا داخل هذه الرواية مهرجون وطغاة. جلادون وضحايا. دموع وابتسامات. قديسون وعهرة. الجميع هنا وجوه مضحكة أو أقنعة مبكية لمدرسة الواقعية الجديدة.

ستوب. استراحة. أكشن، ثم اشرع في النسيان مباشرة بعد القراءة. فعلى الأرجح هذا ما كان يجب أن يحدث. هذا ما لم يكن عليه أن يحدث قط.

ستوب. استراحة. أكشن، ثم يخرج لك من جهة اللامتوقع فيلليني ثالث يركب الفيل ويصرخ بملء حنجرته نيابة عن كل الذين لم يمتلكوا موهبة الصراخ أو صودرت منه بضربة مخلب في الحبال الصوتية.

عمل روائي مدهش وفاتن حد الوجع.

القاص المغربي أنيس الرافعي

المتوسط



وحيد الطويلة: قاص وروائي مصري، صدر له رواية «ألعاب الهوى» في أربع طبعات، واحدة منها في مشروع مكتبة الأسرة. ورواية «أحمر خفيف» طبعتان. أما روايته باب الليل فصدرت منها خمس طبعات، وحصدت نجاحاً عربياً وإعلامياً كبيراً، وقد تكون أكثر الروايات العربية التي كُتب عنها في السنوات العشر الأخيرة، وهي الرواية الحائزة على جائزة ساويرس في مصر.

كما صدرت له مجوعتان قصصيتان هما «خلف النهاية بقليل»، و«كما يليق برجل قصير»، صدرت لكليهما طبعة في مشروع مكتبة الأسرة.



لماذا وجد بطل الرواية نفسه في هذا المكان؛ من دعاه؛ أية جريمة اقترف؟ لماذا غضب عليه الضابط. لم هذا التحقيق الذي أجرته الشرطة معه؟

تتعرف على حياة مطاع الغريبة في هذه الرواية التي تتحدث عن عالم غريب وكابوسي. وتتخذ من المخرج الايطالي فيلليني قناعاً، ومن سوف يكتشف الحقيقة المفجعة سيدفع ثمنا باهظاً من لحمه و دمه و سيرته .

من الرواية...«حتى فيلليني هذا مجرم أيضاً، يتخيل نفسه زعيماً يجب أن يسبق اسمه اسم رئيس إيطاليا في صفحة إيطاليا من موسوعة جينيس، وصوره في الصفحات الأولى تسبق صورة الرئيس، بل واتته الجرأة والحماقة معاً ليؤلف أفلاماً من رأسه بلا ورق مكتوب ولا مخطوط تراجعه السلطات، نحن درسنا حالته لنعرف حالتك، يتخيل نفسه حاكماً بأمر السينما يفعل بالمشاهدين ما يشاء، لو كان هذا الفيلليني عندنا لسحلناه، ولك أن تسأل المخرجين في بلادنا، إنهم وطنيون ولا يستطيع واحد منهم أن يطرح مجرد فكرة من رأسه أو يتقدم لتنفيذها دون موافقتنا.

أنت لم تتخيل لحظة أنني أعرفه، أو أننا لا نستخدم أفضل الوسائل لتعليم الضباط، لقد رأيت فيلمه الذي يصف فيه الأولاد الذين يتحرشون بالنساء وبكل شيء، ولم أنس تعبيره: العجول الكبيرة التي لم تفطم بعد، ثم صار فطامها على الدم، لو وقع في يدي لعلمته كيف يصنع فيلماً، ولعلمته كيف تسفَح الدماء»...


ISBN 978-88-99687-15-1

المتوسط